روايات أحلام

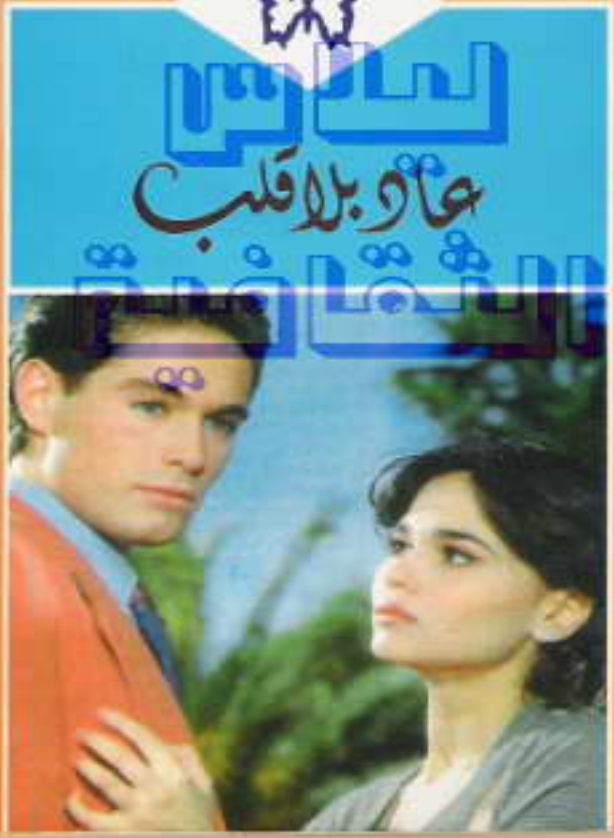

عائد بلا قلب

روايات أحلام

عاد بلا قلب

فقدت مارسيلا إيمانها بالأحلام.. كان حلمها الوحيد أوسكار ولكنه رحل ذات ليلة دون أن ينظر وراءه وتركت الزوجة المصدومة تعاني من وحشة الهجران. ومنذ ذلك اليوم قطعت مارسيلا علاقتها مع الأحلام.

لماذا عاد الآن؟ لماذا اختارها سكرتيرة له؟ ليضيف اتهامات جديدة إلى قائمة اتهاماته؟ أم ليحكم حولها القيود التي كبّلها بها طوال أعوام؟ بينما هو يعبث مع صديقته الجميلة غير عابئ بمشاعرها. أخيراً سألها قلبها خلال رحلة العذاب.. أما آن لهذا الحب أن يموت؟

ريح النسيم

١ ـ ذهب مع الريح

www.liilas.com

كان الجو ملبداً بالغيوم في الصباح، والحرارة منخفضة كثيراً بحيث دفعت الناس إلى إحناء أكتافهم، وتحريك أقدامهم، وهم ينتظرون الباصات التي ستقلهم إلى أعمالهم. يبدو أن آخر يوم في السنة يبذل جهده لمنع الناس من الحزن على انقضائه.

عندما كانت مارسيلا تغسل صحون فطورها، نظرت من نافذة مطبخها إلى الخارج حيث الحديقة الصغيرة المليئة بالورود الذابلة.

في وقت ما أحبت مارسيلا الحديقة، في وقت ما كان لحياتها معنى وهدف. يومذاك كان في كل يوم وعد وتحدٍ.

في آخر الحديقة، موقف السيارة المؤقت.. هناك كانت المنازل قائمة ولكنها جرفت لتصبح أكواماً، والأكوام أزيلت، والأرض بانتظار إعادة إعمارها.

إن المنزل الذي تقيم فيه مارسيلا صغير وقديم وهو أحد ستة منازل. ثمة أربعة منازل فارغة ومقفلة بألواح خشبية. أما المنزلان الباقيان فتشغلهما هي والسيدة دويل وابنها. والواقع أن السيدة دويل هي مالكة هذه المنازل الستة وهي ترفض البيع.

لقد تهدمت جميع المنازل التي حولهم وهي الآن تحت قيد الإنشاء.

يقول الناس هازئين إنها تعرف ما تفعل.. فكلما أخرت البيع كلما ارتفعت قيمة أرضها، ولكن الناس مخطئون.. فأميتي دويل الأرملة ليست صغيرة، وقد أنجبت ابنها ستين في وقت متأخر من حياتها. الواقع أنها

فقدت قوتها وأصبحت نصف مقعدة إذ تقضي معظم أوقاتها في الفراش. كانت جدرانها الأربعة التي عاشت في كنفها منذ زواجها قبل ستين عديدة، أعز على قلبها من المبلغ الضخم الذي ستقبضه في ما لو وافقت على البيع بناء على طلب مجلس البلدية.

كانت السيدة دويل طيبة مع مارسيلا، فقد حلت محلّ أمها التي ماتت قبل أن تبلغ مارسيلا سن المراهقة. عندما تزوج والدها مجدداً أرادت زوجته الجديدة أن تعيش معه بدون ابنته التي سيزعجها وجودها، لذلك حالما عرضت عليها السيدة دويل بيتاً قبلت شاكرة.

ركضت مارسيلا إلى الطبقة العلوية لتضع بعض البودرة ولتسرّح شعرها الأشقر الذي تفرقه في الوسط وتربطه إلى الخلف تاركة خصلتين متدليتين على أذنيها.. إن لم تسرع تأخرت في الوصول إلى عملها.

أينما اتجهت في المنزل تجد ما يذكرها بأوسكار. في غرفة الجلوس مقعدان بذراعين، وفي الغرفة الصغيرة كرسيان كانا يجلسان عليهما وقت الطعام. وفي الحمام مشجبان للمناشف، وفي غرفة النوم سرير مزدوج.

هناك زجاجة عطر ما تزال كما هي على طاولة الزينة منذ ثلاث سنوات وهي تنظفها بانتظام ثم تعيدها إلى مكانها.. كانت بين الحين والآخر تقول لنفسها إن عليها رميها ولكن متى رمتها عرفت أنها تخلت عن كل أمل.

تساءلت عما فعله الزمن بأوسكار.. تعرف ماذا فعل الزمن بها. لقد أخبرتها المرآة فمنها تطل عينان فقدتا رونقهما وثغر صغير نسي تقريباً الضحك، ووجه كئيب مظلم كالجو في الخارج.

كانت مارسيلا كل صباح تزور جارتها، لا تشعر السيدة دويل أحياناً برغبة في الخروج من سريرها، لذلك تعمد مارسيلا إلى ترتيب الوسائد لتستريح، ثم تغسل لها أطباق الفطور الذي يحمله إليها ابنها ستين على صينية.. وفي بعض الأحيان تشعر السيدة دويل بالنشاط فتنزل إلى الطبقة السفلى.

قررت السيدة هذا الصباح البقاء في الفراش فساعدتها كالعادة ثم جاء

ستين ليرافق مارسيلا إلى الخارج فذكرته بموعدهما ذلك المساء في منزل هاربيت وفرانك كوري قائلة:

ـ إنها ليست حفلة.. بل مجرد احتفال نقوم به أربعتنا بمناسبة عيد رأس السنة.

هز رأسه قائلاً إنه لم ينس. كان شعره أشقر، وبشرته شاحبة شحوباً كان يدفع الناس إلى السؤال عما إذا كان يعاني من فقر الدم. هو متوسط الطول، دمث الأخلاق، عيناه خاليتان من المشاعر.. في الخامسة والعشرين أي أصغر ببضعة أشهر من مارسيلا وهو مدير الفرع المحلي لمؤسسة ملابس رجالية معروفة عالمياً.

دخلت مارسيلا إلى موقف السيارات في مكان عملها، وأرجعت السيارة إلى مكان فارغ.. وفيما هي تقفلها، وتتفحص الباب، تساءلت لماذا تحتاط إلى هذا الحد فلن يرغب أحد في سرقة سيارتها الصدئة على الجانبين والمهترئة السجاد والتنجيد. ولكنها أفضل ما تستطيع تحمل نفقاته، فنفقات الصيانة التي كان يضعها أوسكار في حسابها المصرفي بدأت تتضاءل.

بعدما تخلى عنها أوسكار، جعلا من افتراقهما قانونياً ولكنهما لم يعودا إلى الالتقاء إذ مثلهما المحامي، ووقعا اتفاقاً مشتركاً. كانا يعملان في المؤسسة الهندسية «تورنر ومولدون وشركاهما».. لكن أوسكار سارع في الطلب من الشريك الرئيسي فيليب تورنر أن ينقله إلى فرع ميدلند في الشمال، وشرح له الأسباب فوافق السيد تورنر على الطلب فوراً. كانت مارسيلا تعمل لدى الشريكين، هاري مولدون وفيليب تورنر، الذي يوشك أن يبلغ سن التقاعد.

كان السيد تورنر يقول: «لقد أصبحت عجوزاً.. ما إن يتوقف المرء عن تحمل أفكار الشباب حتى يحين أوان تراجعه.. وأنا تذهلني قدرة شباب هذه الأيام، وأراني مدفوعاً إلى الانسحاب».

طلب السيد مولدون مارسيلا حال وصولها تقريباً.. كان تصرفه فظاً. وبدا من غير الطبيعي ذلك الصباح أن يسمح لنفسه بالتذمر بصوت مسموع

بشأن العمل المتراكم أمامه على المكتب.

ـ من الأفضل لفيليب أن يتقاعد فهو لا يكاد يقوم إلا بالقليل من العمل في هذه الأيام.

ثم استدرك فهو ليس بمفرده. كانت مكاتب شركة «تورنر ومولدون، وشركاهما» أكبر من معظم مكاتب الشركات الهندسية الأخرى. كان عملها مزدهراً بحيث شمل تنفيذ معظم المشاريع الإعمارية في المدينة. بعدما أملى السيد مولدون عليها ما يريد عادت مارسيلا إلى مكتبها، وجلست إلى الآلة الكاتبة. كان في الغرفة خمس فتيات يجلسن إلى طاولاتهن منهمكات بالعمل. وكانت هاربيت كوري صديقتها تقف أمام المرآة تمشط شعرها.

همست: «تأخرت مجدداً، إنما لا تخبري أحداً. لقد رفضت السيارة الانطلاق، أما فرانك فثار بسبب تراكم الأعمال الملحة..»

استمرت في الهذر بشأن شؤونها الخاصة حتى دخل أحد المهندسين ليضع أمامها أوراقاً، قائلاً إنها ستتضمن بقاءها صامتة.

عندما جاء فرانك بعد ساعات العمل ليصطحب هاربيت ذكر مارسيلا بموعدهما الليلة.. وما إن خرجا حتى سألت إحدى الطابعات:

ـ هل ستستقبلين ليلة رأس السنة بأسلوب خاص؟

هزت مارسيلا كتفيها: «ستكون سهرة عادية».

إن ليلة رأس السنة عندها لا تختلف عن أي ليلة أخرى، إنها مجرد تغيير رقم أو رقمين في التاريخ وتعليق روزنامة جديدة على الجدار. إذ لا يسكن لها الانتقال من كانون الأول إلى كانون الثاني شيئاً من ألمها ولا يخفف من عذاب التفكير في أوسكار.

تركت السيارة أمام منزلها.. فليس هناك كاراج تركنها فيه.. كان المنزل بارداً رطباً، زينة الميلاد فيه قد فقدت رونقها.

زارها ستين قائلاً إن خالته، شقيقة أمه، ستلازمها حتى تنام وبعد ذلك أمسك ذراعها وسارا جنباً إلى جنب نحو سيارته. لكن مارسيلا لم تكن تحب نزعته إلى التملك.. فهي تعتبره أخاً لها إذ ترعرعت معه لسنوات عديدة.

لكنها لم تردعه.. وسألت نفسها: «هل تلام على استغلاله في ملء فراغ حياتها.. إنه الترياق لتعاستها، والضمادة لجروحها»، ولقد كان، على أي حال، السبب الرئيسي في انهيار زواجها، لذلك تحس بأحقيتها في الأخذ منه ما يعرض عليها من صحبته.

رحبت هاربيت وفرانك بهما بحرارة.. كانت نار الموقد متأججة والأضواء على شجرة الميلاد متأرجحة وأدوات الضيافة بالانتظار.

وضع فرانك بعض التسجيلات، وقال لمارسيلا:

ـ ألا تشعرين بالاستغراب لأن أوسكار عائد إلى المدينة؟

جف الدم من وجهها وأصبحت اليد التي تحمل الكوب غير ثابتة فمالت هاربيت تتناوله منها وتقول له مؤنبة:

ـ فرانك..! ماذا فعلت؟ مسكينة مارسيلا، كيف تزف لها الخبر كالصاعقة؟

عبس زوجها، ثم نقل بصره من نظر زوجته إلى ضيفتهما فلاحظ الصدمة عليها..

ـ أنا آسف. خلتك على علم بعودته.. ظننت أن الجميع على علم بها.

غضبت هاربيت منه: تعرف جيداً أننا نكتم الخبر عنها! قرر جميع الموظفين ألا يتكلم بكلمة حتى..

بدأ لون وجه مارسيلا يعود تدريجياً إليها فوجهت الكلام للزوجين:

ـ لا بأس هاربيت، لا تلومي فرانك.. كنت سأعرف أولاً وأخيراً. إنما لماذا جاء؟ ومتى؟

نظر فرانك إلى زوجته يطلب الإذن بالرد، فهزت رأسها، فقال:

ـ لماذا؟ حسناً.. تعرفين أن تورنر العجوز قد بلغ سن التقاعد.. وبما أن السيد مولدون يشعر بثقل العمل عرض على أوسكار المشاركة. ما إن يخرج السيد تورنر حتى يصبح أوسكار أحد مديري الشركة..

تمتمت مارسيلا: «لكن.. لكن.. كيف سأتمكن من متابعة العمل بعد عودته؟»

قال ستين بلهجة حادة: «ستضطرين إلى ترك العمل».

ها هو يبرز تملكه ثانية..

ردت مارسيلا: «لا أستطيع ترك العمل ستين.. فهو مصدر رزقي بل لماذا أتركك؟ لقد عملت عندهم سنوات.. فلماذا أتركك؟»

قال ستين: «حان الوقت ليطلقك».

ردت مارسيلا بحزن: لن يمنحني الطلاق.. لقد راسلته عبر المحامي أطلب منه الطلاق فكان الرد أن الاتفاق الذي وقعناه بشأن الانفصال يمنع الطلاق إلا إذا وافقنا معاً عليه، وهو يقول «لا».. وعليّ الآن الصبر حتى مرور الوقت اللازم لوجوب الطلاق.. وهو متمسك بحقه، إنما الله وحده يعلم ما الدافع الذي يجعله يحتفظ بي مدة سنتين أخريين.

تمتم ستين: «إنها السادية، ليس إلا».

قال فرانك: «أنت تبالغ».

تحركت مارسيلا بقلق ففرانك يفهم الوضع على غير حقيقته لأنها حتى وإن كانت حرة لن تتزوج بستين.. لكنها لا تستطيع إقناع أحد حتى ستين نفسه.

قالت هاربيت بحبور: «على أي حال بعد عودته ستتمكنين من محادثته وإقناعه بوجهة نظرك»..

دقت الساعة معلنة انتصاف الليل، فتبادلوا الأمنيات بالصحة والسعادة.

رفع فرانك كوب عصيره يشرب نخباً: «نخب السنة الجديدة».

تمتمت هاربيت وهي تنظر إلى مارسيلا: «نخب ما تخبئه لنا جميعاً».

تلك الليلة تقلبت مارسيلا في فراشها.. تكرر بقلق مسعور: أوسكار عائد.. أوسكار عائد.. كان عقلها متعباً يكرر اسمه بدون أن يلفظه وكأنه مطرقة تدق مساراً في جدار قاسٍ: ماذا سيقول؟.. ماذا سيفعل؟ وهل سيعرفها الآن؟

ما تزال تسمع صدى صفقة الباب في اللحظة التي خرج فيها من

حياتها.. لقد عَدَت وراءه وناديته.. ولكنه لم يرجع. وقع بينهما شجار عنيف، وكان السبب كالعادة ستين. قال لها أوسكار يومذاك:

ـ لن يتركك وشأنك.. يدخل ويخرج قائلاً إن أمه تريدك لهذا الأمر أو ذاك..

ـ تعتبرني السيدة دويل ابنة لها لأنني عشت معهم مدة طويلة.

قال ساخراً: «أجل ويعتبرك ابنها شقيقة».

ـ عندما أفكر في ما أسديتني من خدمات..

ـ ألم تسددي لها عبر السنوات؟ ألم تنظفي لها منزلها وتغسلي لها ثيابها وتشتري لها حاجياتها؟ ورغم ما قدمته لهما لم يتركاك وشأنك.

صاحت: «لن أقدر يوماً على ردّ الجميل الذي أدين لها به. تنسى أننا حصلنا على هذا المنزل لأنها أجرته لنا بسعر معقول».

ـ أعتقد أحياناً أن هذا هو السبب الوحيد للذي دفعك للزواج بي.. أقصد الحصول على منزل خاص بك، والمركز الذي يؤمنه لك الزواج. أنت لا تحبينني، بل تحبين ذلك الجار الأبله.. لا شك في هذا نظراً للطريقة التي تهرعين فيها عند أقل إشارة أو نداء منه. أظنك لم تتزوجيه لأنك ما رغبت في البقاء خادمة لأمه طوال حياتك الزوجية.. وهناك أمر آخر، أنت زوجتي ومع ذلك تهرعين إليها كل مساء «للاعتناء بها» كما تدعين ولكن الواقع أنك تبغين تسلية ابنها.

بكت متألمة من قلة ثقته بها وسوء فهمه لها، وقالت:

ـ ولكنك دائم الانشغال، وعندما تأتي إلى المنزل تحمل معك أوراقك فتعكف عليها ولا تكلمني أبداً ثم تمنعني من مشاهدة التلفاز لأنه يزعجك.

رد عليها: «هذا ما أقوم به طبعاً. فماذا أفعل ما دمت كل مساء عند الجيران؟ لماذا لا تعترفين أن ستين يجذبك؟»

صاحت ترد عليه: «لأن هذا غير صحيح! وأنا من البشر أريد من الحياة أكثر من الجلوس في مقعد ذي مسندين حابسة أنفاسي خشية إزعاج قطار تفكيرك. أكاد لا أجرؤ على قلب صفحة الكتاب. لماذا لا نخرج أحياناً،

كما يفعل المتزوجون؟»

قال ساخراً: «إذن، أنت غير مكتفية بي زوجاً».

أحست بالخوف من لهجته، لقد وقعت بينهما خصومات متعددة بسبب هذا الموضوع، إنما هذا الخصام هو الأسوأ.

أردف: «تريدين شخصاً أكثر إثارة، أليس كذلك؟ شخصاً لا يرغب في تحسين مؤهلاته والارتقاء كما أفعل؟ شخصاً يوفر لك «وقتاً مرحاً»؟ أعرف الآن بالضبط ما أنا في نظرك وحياتك، لذا لم يبق أمامي إلا الخروج من حياتك بسرعة».

تلك الليلة، وضّب حقيبته وترك المنزل ومنذ ذاك الحين لم تره وقد حدث ذلك في ذكرى زواجهما الثاني.

* * *

عندما زارت مارسيلا السيدة دويل في الصباح التالي وجدتها أحسن حالاً.. ساعدتها في ارتداء ثيابها، ثم بمساعدة عصا وذراع ستين نزلت إلى الطابق السفلي.

ذكرها ستين وهي تركب سيارتها للذهاب إلى العمل:

ـ لا تنسي التدريب هذه الليلة.

سألته مبتسمة: «وهل حفظت الكلمات كلها؟»

كانت تعلم أن هذا غير ممكن لأنها المراجعة الأولى في التمثيلية، ولقد أعطي الدور الرئيسي، أما هي فالمخرجة.

ضحك وهو يلوّح لها: «أعرف منها السطر الأول فقط».

كانت تطبع رسائل السيد تورنر عندما دخل مايكل جيمسون أحد المهندسين الشبان وهو شاب ملتح عفوي الطبع. دنا من طاولتها محاولاً كما فعل مراراً أن يأخذ منها موعداً.. ولكنها قالت:

ـ آسفة.. لدي موعد هذا المساء.. مع تمثيلية.

كشّر وجهه مستهجناً، ثم قال متردداً:

ـ سمعت إشاعة مفادها أن أوسكار بلووم عائد إلى المكتب هنا. هل من المحتمل حدوث مصالحة كبرى؟

ـ لا.

ـ حسن إذن.. كنت أتساءل فقط ولكنني لن أستطيع القول إنني آسف، لأن ذلك قد يعني أنني ما زلت قادراً على المثابرة في محاولاتي معك بعيداً عن وجود زوج متوتر يلكمني على أنفي.

أجبرت ابتسامة على الظهور: «لا ضير من المحاولة إنما ما زال ردي «لا».

هز كتفيه وابتعد.

وقت القهوة قالت لها هاربيت:

ـ تبدين متعبة. هل بسبب سهرة الأمس؟

ـ لا.. ولكنني لم أستطع أن أنام.

ـ أقلقة بشأن أوسكار؟

هزت مارسيلا رأسها، وسألت بيأس «ماذا أفعل هاربيت»؟

هزت هاربيت كتفيها: «انتظري.. وهل لديك حل آخر؟ أعرف ما تشعرين به عزيزتي».

ذهبت مارسيلا إلى أول مراجعة للتمثيلية في سيارة ستين.

جرّ جميع الممثلين الكراسي من أطراف القاعة، وجلسوا في نصف دائرة يواجهون مارسيلا.. وأخذ كل منهم يقرأ دوره.

قالت مارسيلا مشجعة في آخر الأمسية:

ـ حسناً، إنها بداية جيدة..

أوصلها ستين إلى المنزل وهناك قبلها على جبينها قبلة المساء كعادته.

في الصباح التالي كتبت ما أملاه عليها السيد مولدون ثم سمعته يتنحنح قائلاً:

ـ لا أدري إن كنت تعرفين بعودة زوجك إلى المكتب الرئيسي هنا؟

أجابت بنعم.. فسأل: «هل أرسل لك رسالة يخبرك بعودته؟».

ـ لا سيد مولدون . . لا صلة بيننا منذ انفصالنا إلا المحامي.

التقط رسالة، وراجع محتوياتها قائلاً:

ـ هكذا إذن . . ظننتكما ستتصالحان؟

هزت رأسها: «لم يتغير الوضع بيننا البتة».

وضع الرسالة من يده: «ولكنه لم يعترض عندما اقترحنا عليه الانتقال إلى هنا».

هز كتفيه، وكأنما يقول إن مثل هذه الأمور أبعد من أن يفهمها، وعاد إلى العمل.

احتست مارسيلا قهوتها وهي تطبع المراسلات، ثم أدخلت الرسالة المستعجلة إلى الطابق العلوي وقرعت باب غرفة الاجتماعات . . ودخلت . . رفع رأسه الرجل الذي كان يتحدث إلى المجتمعين المصغين إليه باهتمام وتركيز، وتوقف في منتصف الجملة، ثم تابع كلامه وكأن شيئاً لم يحدث.

لم يدم التوقف إلا بضع ثوانٍ فقط كانت بالنسبة لمارسيلا، دهراً . .

شعره بني، وجهه بيضاوي، عيناه حادتان قاسيتان . . بدا رجلاً لا يتسامح بسهولة مع المقاطعة لذا تابع انطلاقته نحو هدفه، وحتى النهاية مهما كانت مريرة . . ومهما كلفته . . أو كلفت الآخرين.

كان الرجل أوسكار بلووم.

* * *

٢ ـ أنت تدوس على قلبي

دست مارسيلا الرسالة التي تحملها أمام السيد مولدون، فأخذ قلماً من جيبه ووقع اسمه، ثم أعاد الرسالة ليقول من بين الصمت المفاجىء:

ـ أرسليها فوراً سيدة بلووم.

هزت رأسها وغادرت الغرفة فعاد النقاش يتعالى من وراء الباب المغلق . . خطت بضع خطوات ثم توقفت . . اضطرت إلى انتظار توقف الدنيا عن الدوران قبل أن تهبط الدرج. تمسكت بخشب الدرابزين المصقول، وبدأ عقلها يعمل. لقد عاد أوسكار الذي لم يعن له وجودها أكثر من ذرة غبار. لقد مرت ثلاث سنوات منذ رآها لآخر مرة، ولم تستحق منه سوى نظرة سريعة عابرة.

قالت هاربيت وهي تراقب مارسيلا التي جلست وكأنها مقعدة تعاني من الألم:

ـ لا تقولي . . لقد رأيته!

هزت مارسيلا رأسها وعيناها جامدتان، فعلقت هاربيت:

ـ لقد تغير . . أليس ذلك؟

ـ تغير؟ لقد تغير إلى درجة أخافتني . . لكن، ما أريد أن أعرفه . . إلى أين ستنطلق من هنا؟

طوال فترة الصباح كانت تنتظر أن يدخل أوسكار إلى غرفة الطابعات، ولكنه لم يدخل ولما مضى الظهر بدأت تسترخي. ربما لن يكون الأمر صعباً على أي حال، فقد لا تلتقي به إلا عند الدرج أو كما حصل هذا الصباح، في

اجتماع ما. وسيكون له سكرتيرته الخاصة، وهذا يعني أنهما لن يتبادلا الكلمات. ولكن عقلها صاح بها: العذاب هو معرفة أنه هنا، على مقربة شديدة منها بحيث تستطيع مكالمته وملامسته ومع ذلك تشعر بكراهيته تطل من عينيه.

دخل مايكل جيمسون رافعاً يده محيياً الفتيات الأخريات، ثم تقدم كالعادة من مكتب مارسيلا. ما إن شاهدته حتى أطبقت يدها على القلم قرب الآلة الكاتبة، فأطبق هو أيضاً يده على يدها. فضحكت:

ـ أعرف ما تسعى إليه.. قلمي.. أنت مهندس لذا تؤلمك أصابعك متى شاهدت قلماً!

ـ إذن تعرفين ما أسعى إليه..؟ ليس قلمك فقط يا حلوتي..

اقترب منها: «أخرجي معي الليلة وجربي، قد يعجبك هذا.. من يعلم».

اقترب منها:

ـ هيا، جربي الآن.. تجربة.. تجربة..

تنحنح أحدهم.. كان يقف قربهما، فاستقام مايكل ثم امتقع وجهه على غير عادته عندما شاهد ذاك الشخص.

ـ مرحباً أوسكار.. هل تريدني؟

ـ لا أريدك.. بل أريد سكرتيرة.

ـ آسف.. كنت أمزح.

ومضى في طريقه.

نظرت مارسيلا إلى عينين باردتين. كان قلبها يخفق بطريقة عاصفة جعلت جسمها يرتجف.

أردف أوسكار بلووم بصوت لا نقمة فيه:

ـ قال السيد مولدون إنني أستطيع الاعتماد على خدماتك حتى أجد سكرتيرة لي.. آسف لأنني وصلت في لحظة غير ملائمة. في المرة القادمة سأسعى جهدي لئلا أفسد عليك مثل هذا المشهد الرومانسي.

تركت مارسيلا السخرية تمر بدون تحدي.. أضاف أوسكار: «أريد أن تُطبع كمية من هذه الفاتورة رجاءً».

وارتدّ مبتعداً.

ماذا تدعوه.. أوسكار.. سيد بلووم؟ هذا سخيف. إنه زوجها.

أخيراً قررت بضعف:

ـ حاضر..

بعدما أنهت مارسيلا طبع الفاتورة غادرت المكتب وسألت هاربيت إذا كانت تعرف مكان مكتب أوسكار فأجابت:

ـ أظنه في غرفة المخزن المجاورة لغرفة السيد تورنر. يقول قرانك إنهم في ما بعد سيجدون له مكتباً أكبر، وربما يكون مكتب السيد تورنر الذي سيتقاعد.

قرعت مارسيلا باب غرفة المخزن فسمعت من يقول لها «تفضل». أفرغت الغرفة من محتوياتها الكثيرة فأصبح فيها متسع لطاولة مكتب.

مد أوسكار يده ليأخذ ما أنهت من طباعة دون أن يشكرها. وقالت:

ـ أنا آسفة، لم أستطع إنهاء لوائح المواصفات.. هل من الممكن تأجيل طباعتها حتى الصباح؟

ـ يبدو أن عليّ الانتظار.

ـ سأتأخر في عملي، إذا شئت.

ـ لا.. شكراً لك، لن أتطفل على شؤونك الخاصة بالطلب إليك البقاء وقتاً إضافياً.

تدفقت إلى رأسها كلمات كادت تعجز عن الصمت عنها.. أرادت القول: حباً بالله إن كنا سنعمل معاً فغيّر تصرفك. لن أطيق سخريتك طوال النهار. عاملني على الأقل كبشر. فلست من هجرتك بل أنت من حطم زواجنا.. غير أن الكلمات أبت الخروج. وقالت عوضاً عنها:

ـ عمت مساء.

ولكنه لم يرد.

قررت مارسيلا ذلك المساء انتزاع زينة البلاء. حملت السلم المنخفض إلى غرفة الجلوس، ومدت يدها نحو السقف لتنتزع المسامير الصغيرة واحداً واحداً، وكانت تشد نفسها إلى فوق لتنزع آخر مسمار عندما سمعت المفتاح يدور في قفل الباب، وجمدت! فلا أحد في العالم لديه مفتاح للباب الأمامي.. إنه صوت ثاقت منذ رحيل أوسكار إلى سماعه يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة.. ولكنه الآن ملأ قلبها ذعراً.

وقف أوسكار بالباب.. وقال:

ـ دعك من هذا الرعب. فلم آت مطالباً بحقوقي الزوجية.

نزلت ثم قامت بما في وسعها لترتيب الفوضى، فقال:

ـ لست ضيفاً لذا لا حاجة إلى ترتيب البيت.

لاحظت أنها لم تتكلم حتى الآن فقالت بصعوبة:

ـ لماذا.. جئت؟

جلس بدون أن يخلع معطفه «لأرى زوجتي.. لأرى كيف تلقت عودتي.. لأرى المنزل الذي كنت أعيش فيه معها. هل من قانون يمنع ذلك؟»

ـ لكننا منفصلان.. يجب ألا نكون هنا.

ـ وما زلنا منفصلين فكراً و..

نظر إليها متفرساً ثم أردف بطريقة مهينة:

ـ وجسداً.

كانت مارسيلا واقفة.. فقال لها:

ـ لماذا لا تجلسين؟ إنه منزلك..

ـ لقد تغيرت.

أرجع رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه.

ـ أجل.. تغيرت.. لقد مرّت بي تجارب كثيرة منذ تركتك.

لم ترد لأنها لم تستطع التفكير في شيء.

فتح أوسكار عينيه، ورفع رأسه.. فرأت خطوط التعب على وجهه. بدا أكبر من عمره الذي لا يتعدى الثلاثين.

سأل: «وأنت؟ كيف حال علاقتك الغرامية؟»

ـ علاقتي الغرامية؟ مع من؟

ـ لا تتظاهري بعدم المعرفة.. مع ستين دويل. ومن غيره؟ إلا إذا..

كان مايكل جيمسون في الميدان الآن.

ـ لا هذا ولا ذاك.. لماذا عدت أوسكار؟

عرفت من خلال نظرة واحدة إليه أنه لم يصدقها. لم يرد عليها في البداية إذ كان ينظر إلى صورة التقطها عن المدفأة، صورة لهما يوم زفافهما. نظر إلى الصورة طويلاً، ثم أعادها بدون تعليق..

رد على سؤالها: «لماذا؟ هذا واضح، أليس كذلك؟ لا يستطيع الرجل الطموح مقاومة نداء مركز أرفع، وراتب أكبر، أضيفي إلى هذا، اشتياقي إلى شمال انكلترا».

ـ ولكنك تعرف أنني ما أزال أعمل في المكتب الرئيسي، لهذا طلبت الانتقال منذ ثلاث سنوات.

ـ وهل تظنين أنني سأدعك تقفين في طريقي وطريق ترقيتي؟ إن لم تعجبك عودتي.. فاتركي العمل.

ـ كيف لك أن تكون قاسياً إلى هذا الحد؟

ـ لست قاسياً.. أقول الحقيقة فقط.

ابتلعت غصة الكرامة وسألت: «أترغب في فنجان شاي؟»

ـ نعم.. رجاء.

سارت في الردهة، ثم ارتقت ثلاث درجات وصولاً إلى المطبخ.. عندما كانت تحضر الشاي وترتب الأكواب، سمعته يجول في الطابق العلوي حيث فتح باب غرفة نومهما وظلّ فيها قليلاً.

حين نزل، رأته خالعاً معطفه، فذعرت مجدداً.. كم ينوي البقاء هنا؟

في غرفة الجلوس أخذ الفنجان الذي قدمته له.

ـ أعتقد أنك تدركين أنك تعيشين في حي فقير؟ أمر مثير للسخرية. أليس كذلك؟ ها هو زوجك، مهندس ناجح، وهذا هو البيت الوحيد الذي عرفته منذ سنوات.

ـ ولكنه كان مميزاً بالنسبة لي.

لم تستطع أن تقول له إن وجوده فيه هو الذي جعله مميزاً.

ـ أجل، كان هذا كل ما تريدينه حقاً، أليس كذلك؟ سقف يظللك. المشكلة الوحيدة أن الحصول عليه اقتضى قبولك بي معه. ومن سوء حظك أنني وقفت في طريقك.. لم أتأخر كثيراً حتى أدرك إلى أي حد كنت أقف في طريقك.

لا جدوى من إنكار صحة كلامه أو الاعتراض عليه، إذ سينكر إنكارها ويتهمها بالكذب.

رفع رأسه ينظر إلى السقف المشبع بالعفن والإهمال ليقول:

ـ يا إلهي، ما أشد ما كان يحيط بي هنا من أشياء تقبض النفس! لا أدري كيف تتحملين الحياة هنا؟ ولكنني أعرف. إنه الجوار إلى ستين الحبيب.

ـ لا يعني لي ستين شيئاً.

استقبل قولها بابتسامة ساخرة، ووضع فنجانه والصحن، ثم وقف، وظهره إلى النار الخابية.

ـ أنت على علم بأن هذه المنازل على وشك أن تهدم.

ردها قوله إلى الحياة.

ـ هذا غير صحيح! ترفض السيدة دويل البيع.

ابتسم: «ستقتنع.. أخيراً. إن الهدم واقع حتماً.. إن المنازل القديمة في أحياء فقيرة كهذه هي كالأعشاب الضارة أو كالأسنان النخرة يجب اقتلاعها»

لم تصدق أنه قادر على أن يكون عديم الإحساس.

ـ لكن.. كان هذا بيتك.. بيتنا.. يوماً. ألا يعني هذا لك شيئاً؟

فكر في الرد: «آسف لأنني لا أستطيع أن أكون عاطفياً تجاه منزل مهترىء كهذا».

شدت مارسيلا على شفتيها، وجمعت الكوبين الفارغين.. ألا مجال للوصول إليه؟ أين هو الرجل الذي تزوجته، الشاب السعيد، الدافىء القلب، الذي تمسك أكثر منها بفرصة الحصول على بيت يشاركه مع الفتاة التي أحبها؟

تزوجا، ولكن ما لم يتوقعه كما اتهمها أن يتزوج الجيران كذلك.

نظر الآن إلى الزينة المرمية على الأرض.. وسأل:

ـ هل أمضيت أمسية ميلاد جيدة؟

ـ أجل.. شكراً لك.

وكأنهما غريبان يتحدثان أمام موقف الباص.

ـ هل أمضيتها بمفردك؟

ـ لا.. بل زارتني السيدة دويل وابنها.

ضاقت عيناه: «هكذا إذن.. ما زال كل منكم يعيش على حساب الآخر».

ـ السيدة دويل نصف مقعدة.. وهي في أغلب الأحيان لا تستطيع القيام بالأعمال البسيطة فكيف بتحضير ما يحتاجه الميلاد.

ـ أما زال ستين يشتهيك؟

امتقع وجهها: «لا أفهم قصدك».

لكنها تفهم جيداً جداً.

رن جرس الهاتف، فذعرت، لا شك أنه ستين.. لم تتحرك فسألها أوسكار الذي لاحظ توترها:

ـ ألن تردي؟ أم تفضلين أن أرد أنا؟

دفعها هذا إلى التحرك فهرعت إلى الردهة تلتقط السماعة، وكان المتكلم ستين:

ـ نعم؟ هل لك أن تتصل بي لاحقاً.. أنا.. مشغولة!

سألها إن كان بإمكانه المجيء، فنظرت بسرعة إلى أوسكار الواقف بباب غرفة الجلوس، يبتسم ساخراً:

ـ لا.. لا.. لا يمكنك هذا.. لا تأتي. سأتصل بك لاحقاً.

وأعادت السماعة إلى مكانها، تحاول إيجاد عذر مقبول للمكالمة.

ـ أخرج تمثيلية يشارك فيها ستين، ولهذا يتصل.

لكن أوسكار لم يكن يصغي إليها.. بل كان يقول:

ـ إذن ما زال على عادته؟ وهذا يثبت لي ثانية أنني كنت على حق عندما تخليت عنك. المشكلة الوحيدة، من وجهة نظره ارتباطك بي.. وهذا أمر سيء له.. ولك.

ارتدى معطفه.. كان من قماش «التويد»، ويبدو غالي الثمن..

أردف: «ربما يظن أنه سيربح.. لكنه مخطىء فما زلت أمسك بالورقة الرابحة».

ثم خرج صافقاً الباب وراءه.. صعدت مارسيلا إلى غرفتها غاضبة. فيما هي واقفة أمام طاولة الزينة فتشت عيناها آلياً عن زجاجة عطره، ولم تجدها.

انحنت تأخذ الزجاجة من سلة المهملات.. لقد أفرغ محتوياتها في مغسلة الحمام، ورمى الزجاجة في السلة.. أحست بتصاعد سخطها عليه لأنه حطم أعز ممتلكاتها.. ولكن زجاجة العطر ليست لها بل له، كما كانت هي له.

لقد أفرغها كذلك من المشاعر، ورماها. الآن ولى من نفسها كل شيء، حتى الأمل.. إنها فارغة، لا فائدة منها، كالزجاجة الفارغة.. وأعادت الزجاجة إلى المهملات.

* * *

زارت مارسيلا كالعادة السيدة دويل في الصباح التالي فوجدتها منفعلة.

ـ إنها الرسالة.. الرسالة التي طالما خشيتها.

بدا ستين متجهماً، فأضاف نيابة عن أمه:

ـ بيع إجباري.. سيطردوننا.. يقولون إنهم أمهلونا وقتاً أطول من اللازم للموافقة على البيع.. وها هي السلطة تستخدم قوتها لتجبرنا على البيع.

شحب وجه مارسيلا: «كلنا؟ وأنا أيضاً؟»

ردت السيدة دويل: «طبعاً عزيزتي.. فأنا مالكة المنازل الستة كلها».

قال ستين: «سنقاوم هذا.. لنا الحق بالاستئناف».

قالت أمه:

ـ لن أستسلم.. وهذا نهائي. يجب أن يحملوني إلى الخارج أولاً!

قال ستين: «هل لك أن تطبعي هذه الرسالة لتبدو رسمية؟».

ـ هذا ما سأفعله. وهناك أمر آخر سنطالب بتحقيق علني.

حالما وصلت مارسيلا إلى المكتب، طبعت الرسالة التي فيها اعتراض رسمي على شراء الأملاك القصري.

دخل عليها أوسكار فجأة ووقف قربها يسأل:

ـ هل أنهيت لائحة المواصفات؟

صاحت مارسيلا بحدة: «كيف لي هذا؟ لقد وصلت للتو».

ـ ولكنك تعملين..

غطت الرسالة التي في داخل الآلة بيدها ولكنه أمسك بمعصمها وأبعد يدها ليقرأ ما كتبت ثم قال وهو يخرج:

ـ أنت تضيعين وقتك سدى.

طبعت مارسيلا المواصفات ثم صورت العدد المطلوب على آلة الاستنساخ وحملتها إلى مكتب أوسكار.. فقبلها مع شكر وجيز.. ولكنها قالت بتحد:

ـ ماذا عنيت بقولك إنني أضيع وقتي سدى؟ نحن نطالب بتحقيق علني.

مال في كرسيه إلى الوراء:

- يا فتاتي العزيزة. النتيجة حتمية.. تعرفين أن البلدية تملك موقف السيارات المؤقت الذي في مؤخرة الحديقة. وهناك شركة خاصة لتنمية الأراضي مهتمة بشراء الموقف، شرط أن يكون معه أرض المنزل.. لا قيمة للمنزل بل القيمة للأرض.

- ربما لا قيمة للمنزل بالنسبة لك ولكنه بيتي، وسأقاتل من أجله.. أين أذهب إذا هدموه؟

أخذ يقلّب الأوراق التي طبعتها وهو يقول:

- إنها مشكلتك.

- كيف لك أن تكون عديم المشاعر؟ ألم يكن بيتك مرة.. أليس لك فيه ذكريات؟

- أتمنى لو أنسى معظم ذكرياتي فيه.

سيطرت جاهدة على صوتها: «تقول أعذب الكلمات».

ارتدت مارسيلا نحو الباب.. فلحق بها صوته.

- سأقول لك شيئاً آخر.. حالما تصبح الأرض حرّة ستتسلم هذه المؤسسة عقد التخطيط المعمول به للبناء الذي سيبنى فوق الموقع، وكوني المهندس الأول فسيعهد إليّ أنا هذه المهمة.

سألته وملء عينيها الصدمة: «وهل ستقبل؟»

- بسرعة البرق.

- لست سوى خائن.

رد بلطف: «شكراً».

ومضت عيناها: «على السلطات أن تطردنا بالقوة إن أرادت إخراجنا».

- حذار، قد تصابين بأذى.

- سأخاطر.

بدا على أوسكار الألم: «أنتِ أغبى مما ظننت».

وخرجت من الغرفة.

* * *

اتصل ستين بالصحف المحلية، لأنه اعتبرها أفضل وسيلة لجذب الأنظار إلى قضيتهم. قال لمارسيلا إن محرر الأخبار أظهر اهتماماً، وسيرسل أحد المراسلين، وسأل:

- هل تعترضين على هذا؟

- أبداً.. إنما لا ترسله إليّ ستين.. لأن ذلك سيجرّ اسم أوسكار إلى التحقيق.. وهذا لن يكون إنصافاً.

- لكنه لم ينصفك. لقد رحل تاركاً إياك وحيدة.

* * *

اتصل أوسكار بمكتب السكرتيرات في الصباح التالي وطلب من مارسيلا الحضور إليه فعلقت هاربيت:

- لقد بكّر في استدعائك. لماذا يريدك؟

- ربما لأملأ بعض الرسائل.. قال له السيد مولدون إن بإمكانه الاستفادة من خدماتي حتى يجد سكرتيرة خاصة به.

قالت هاربيت: «أخبرني فرانك أن أوسكار وجد شقة مفروشة في بناية جديدة في وسط المدينة».

- شكراً لقولك هذا.. لم أكن أعرف.

قال أوسكار إن لديه رسالة واحدة فقط.. أملاها عليها ثم قال:

- قبل أن تخرجي، أود أن أخبرك أنني أخبرت المحامي بأنني سأزيد مبلغ الإعالة الذي أدفعه لك.

- لماذا؟

- بعدما رأيت الظروف المريعة التي تعيشين فيها، أدركت أن المبلغ الذي اتفقنا عليه منذ ثلاث سنوات غيركافٍ.. وأحس بأنني مسؤول جزئياً، لأنك سكنت هذا المنزل بسبب زواجك بي.

- لا داعي إلى الشعور بالذنب، فما فعلته كان بكامل إرادتي.

ارتفع رأسه وقست تعابير وجهه:

ـ أجل.. هذا ما أنا واثق منه..

اغرورقت عيناها بالدمع: «أنت تفكر فيَّ كثيراً. لا أدري لماذا تزوجتني أصلاً؟»

ـ صدقاً أنا لا أدري.. أظنني صدقت يومذاك أنك ستكونين زوجة صالحة مخلصة.. وكان اعتقادي ذاك خطأ جسيماً.. سببه فقط الشباب وعدم الخبرة.

إن كان يريد أن يكون لئيماً، فستكون هي لئيمة أيضاً.

ـ أنا أيضاً ظننتك ستكون زوجاً صالحاً وما أشد ما كان خطئي جسيماً!

ـ نحن على الأقل متفقان على أمر محدد وهو أنه ما كان يجب لزواجنا أن يتم.

ـ إذن دعني وشأني!

ـ كل شيء في أوانه. عليك وعلى ستين تعلم الصبر.. سيحصل عليك يوماً ما.. إنما أحذرك أنني سأظل متمسكاً بك حتى آخر لحظة، وحتى يجبرني القانون على تركك.

تأملها مبتسماً، وكأن فكرة جديدة طرأت بباله.

ـ وقد أطعن في الطلاق.. لن يمنع هذا القانون من إعطائك الحق بالطلاق ولكنه سيصعب الأمور عليك.

مال إلى الوراء يراقبها بعينين نصف مفتوحتين:

ـ أجل، قد أفعل هذا. ولو من أجل جعل دفع ستين دويل إلى الشعور بوخزات الغيرة التي عانيتها في الماضي.. لقد تجاوزت هذا منذ زمن بعيد، طبعاً.. لكنها كانت جحيماً.. أجل.. ما أروع رؤيته يعاني من العذاب الذي أنزلته بي.. أتعرفين، بدأت أحس بالسرور بسبب عودتي.

وقفت مارسيلا، تقول: «لا أريد مالك أو شهامتك بل لك أن تبلغ المحامي أن يوقف النفقة كلها، لا أحتاج إليها.. فأنا أتقاضى راتباً معقولاً».

ـ لن أفعل هذا.. فبعدما تتركين مكان إقامتك الحالي، فستحتاجين إلى المال الذي أدفعه لك.

عرفت أنها لا تستطيع شيئاً إزاء هذا، فقالت غير ممتنة:

ـ شكراً لك.

هز رأسه وصرفها.

حصل ستين على الدعاية التي أرادها.. فعلى صفحة الجريدة الأولى صورة كبيرة له ولأمه والعنوان: «ابن يحارب من أجل أن تعيش أمه». يقول السيد دويل: عاشت أمي في هذا المنزل منذ زواجها قبل ستين عديدة وهي الآن أرملة، ومقعدة، وسيقتلها الرحيل..

عرفت مارسيلا أن هذا تصريح أقوى من الواقع، لكنه قاله لزيادة التأثير. وأكمل المراسل يقول عن لسان ستين: «لسنا وحدنا من نعاني بل هناك شخص آخر سيتأثر هو مستأجرتنا وجارتنا التي هي امرأة شابة متزوجة تعيش بمفردها، لأن زوجها هجرها بقسوة وليس لهذه المرأة مكان تذهب إليه..»

رمت مارسيلا الصحيفة.. كيف يقول ذلك؟ لقد وعد بعدم المجيء على ذكر أوسكار، ولكنه لم يذكره بالاسم بل لَمّح إليه تلميحاً بالإيحاء ليجذب الاهتمام إلى قضيتها، وليكسب العطف والدعم.

خلعت معطفها وعلقته في الردهة، ثم أعدت لنفسها الشاي..

كانت في المطبخ عندما سمعت صوت تحطم مريع.. هرعت إلى الردهة وهناك وجدت قطعة من آجر، مرمية عبر النافذة من الشارع، حطمت الزجاج ونثرته على السجادة. ولم تلحظ بقايا القارّة التي كانت قرب النافذة حتى انحنت تلتقط قطعة الآجر.. كانت المزهرية هدية زواج، لذا تراها أغلى من جميع ممتلكاتها.

تناهى إليها صيحات أطفال من بعيد. هرعت تفتح الباب، فشاهدها الأولاد الذين أسرعوا يفرون وهم يتضاحكون.

عادت تنظر إلى الفوضى.. اندفعت الريح من الزجاج المكسور..

ودخل المطر المنهمر خارجاً إلى المنزل. رفعت مارسيلا رأسها.. يجب أن تفعل شيئاً لإقفال الشق في زجاج النافذة. لن تأوي إلى فراشها وتتركه هكذا.

أحضرت المكنسة الكهربائية، لكن بعض قطع الزجاج كبيرة بحيث لا يمكن سحبها، فانحنت بحذر لتلتقط القطع الكبيرة وتضعها في سلة المهملات. وأمسكت ما تبقى من القارورة في راحة يدها.

ارتدّ المفتاح في القفل، وملأ أوسكار الباب.. شاهد وجهها المصدوم، ونظر إلى الزجاج المحطم على الأرض، ثم إلى لوح النافذة.. أشارت له إلى قطعة الآجرّ، فسأل:

- من رماها؟

- أولاد.

شق طريقه على السجادة، وأخذ بقايا القارورة من يدها.

رفعت بصرها إليه، وكأنها لا تفهم: «هذا ما تبقى منها»

- إنها مجرد وعاء للزهور.

- كانت إحدى هدايا زواجنا.

- وإن يكن؟ لقد انتهت الآن، لا يمكنك جمعها مرة أخرى! كحالك في عدم لملمة شتات زواجك.

ورمى المزهرية المكسورة من يده.

صفرت الريح عبر زجاج النافذة المحطم، فلما استدارا إلى مصدر الصوت، رش المطر وجهيهما.. فقال أوسكار:

- عليك وضع لوح خشبي في البداية.

- أعرف.. ولكنني لا أعرف كيف أفعل ذلك.

- لماذا لا تطلبين مساعدة ستين الحبيب؟

إنه يسخر منها حتى في هذه الورطة.

- إنه في الخارج.

- من حسن حظك أنني جئت إذن.. أليس كذلك؟

- ولماذا جئت؟

- فلنوفر الحديث في هذا الآن.. هل لديك قطع خشب صناديق توضيب، أو ألواح؟

- لا أدري.

ابتسم ساخراً: «أنت عاجزة بدون رجل».

- جرب المخزن. ستحتاج إلى مشعل.. النور غير شغّال في الأسفل.

- أين أجد المشعل؟

- على الطاولة قرب سريري.

ارتقى الدرج وثباً وهناك وجد ضالته فعاد إلى الأسفل. أدارت مارسيلا المكنسة وبدأت تنظف المكان أما أوسكار فتوجه إلى المخزن ثم عاد حاملاً قطع خشب كبيرة.

- يا الله! ما هذه الحالة التي وصل إليها هذا المنزل! كلما أسرعت بالخروج منه كلما كان أفضل لك.

- ولماذا تهتم كيف أعيش أو أين؟

قال بلطف: «ما زلت زوجتك».

جلب كرسياً إلى مكان ملائم تحت النافذة.

- ألديك مطرقة ومسامير؟ أم أن ما أطلبه كثير؟

- ليس لدي إلا ما تركته أنت فقط.

- أين؟ في المكان نفسه؟

هزت رأسها، فعلق:

- لم يتغير شيء هنا.. أليس كذلك؟

ثبت الألواح بسرعة ثم قال لها:

- هذا سيمنع المطر من الولوج.

- شكراً لما فعلته لي. أتود الشاي أم القهوة؟

- القهوة إن تكرمت بصنعها.

لحق بها إلى المطبخ، ونظر حوله.

منتديات ليلاس الثقافية

ـ وتدافعين عن هذا المكان حتى آخر لحظة من حياتك؟

تمتمت: «إنه البيت الوحيد الذي يأويني. هو ليس بقصر ولكن لي فيه ذكريات».

ـ ويا لها من ذكريات!

ـ لماذا جئت؟ لترهقني بتهجماتك؟

حملت القهوة إلى الغرفة الأمامية، وهناك قدمت له فنجاناً تناوله منها ثم جلس قبالتها وهو المكان الذي كان يجلس فيه عندما كان البيت بيته.

ـ جئت أقول لك إنني وجدت لك مكاناً تسكنين فيه.

ـ ولكنني أعيش هنا.

ـ سمعت بالمكان هذا المساء، فأسرعت أخبرك. ثمة أشخاص عدة يريدون تلك الشقة، ولكن السمسار الذي أخبرني بها قال إنه سيمنعها عنهم حتى صباح الغد.. إنها غرفتان ومطبخ، في منزل نصف مستقل.

عرفت أن عليها أن تشكره لأنه فكر فيها، ولكنها قالت:

ـ يدهشني تفكيرك بي.

احتسى قهوته: «سأترك هذه الملاحظة تمر، مع أني أود لو أرميها في وجهك.. هل أقول للسمسار إنك ستأخذينها؟»

ـ لا.. ولكن أشكرك لأنك أخبرتني..

ضرب أوسكار فنجانه في الصحن:

ـ أنت أعند وأضل امرأة عرفتها! أتردين عرضاً لشقة ممتازة بدون أن تفكري حتى ولو لهنيهة؟

ـ لن أترك هذا المكان.. سأقاتل حتى النهاية.

ـ وستكون نهاية مريرة.

وقف يذرع الغرفة منزعجاً ثم أردف:

ـ لا شك أنك مجنونة لأنك تظنين أنك قد تكسبين القضية أمام السلطات.. ألا ترين ما لا بد منه عندما يكون أمام عينيك؟

ـ لقد طلبنا تحقيقاً علنياً.

ـ وعلى أي أساس تظنين أنكم ستنجحون؟ سيرسلون لكم محققاً رسمياً وما إن يلقي نظرة واحدة على جحر الأرانب هذا حتى يقتنع أن من الأفضل هدمه.

شاهد الصحيفة المحلية ملقاة على الأرض قرب الكرسي، فالتقطها. علمت أنه لن يغفل عن رؤية صورة ستين وأمه في الجريدة. انقلبت السخرية في عينيه غضباً.. وقرأ بصوت مرتفع: هجرها زوجها بقسوة؟ ونظر إليها:

ـ هجرتك؟ تعرفين أن هذا ليس بهجر.. لقد اتفقنا على الانفصال، ووقعنا الوثائق لإثبات هذا.

ـ أعرف.. ولكنني لم أقابل المراسل، أما هذه الكلمات فهي لستين.

رمى الصحيفة: «سألقن ذلك الشيطان المتطفل يوماً درساً لن ينساه. كان عليّ أن أوقفه عند حده منذ سنوات».

ـ لماذا لا تطلقني فيطمئن بالك وتصبح غير مضطر للقلق على مصيري؟

ـ أطلقك؟ لتتمكني من ذلك الأبله؟ وهل أسهل لك الأمور؟ لا وحياتك!

سار في الغرفة، ثم وقف أمامها وفي عينيه نظرة حقد كئيب.

ـ سأعقد صفقة معك.. شرط.. إن حققته طلقتك.

خفق قلبها بألم وسرعة بعدما أصبح في نظرته ترقب.. وسألت: «أي شرط؟»

ـ لو أعطيتني ما لكل زوج الحق به.. حق قانوني يتوقعه المرء من زوجته.. ولمرة واحدة.

واجهته مارسيلا قرمزية اللون غضباً.

ـ وكيف تطلب هذا وأنت تعرف أنها ستكون تمثيلية فارغة، لا معنى لها؟

توجه نحو الباب وابتسامته تعذبها.

ـ على أي حال.. ستكون طريقتك الوحيدة للخلاص مني. فكري في الأمر.

وغادر المنزل.

٣ ـ الحب كان هنا

وقت الغداء يسيطر قسم كبير من موظفي الشركة على مطعم قريب. كان أوسكار معهم، وكالعادة بدا مسيطراً على النقاش. أخرج قلماً، وبدأ يرسم مخططاً لمبنى فوق سطح الطاولة البلاستيكي. أضاف آخرون بعض التفاصيل لرسمه أو أخرجوا مغلفات ورسائل قديمة من جيوبهم ورسموا عليها. قالت هاربيت معلقة:

ـ أمر رائع.. الإدارة هنا سهلة. أتعلمين، رأيتهم يستخدمون مواد الصقل لمحو علامات الأقلام والحبر هذه؟

ضحكت مارسيلا فرغم الظروف تشعر بالسعادة. لقد حمل وجود أوسكار انتعاشاً غير عادي إلى وجهها الحزين، وضبطت عيناه الحائرتان عليها أكثر من مرة..

ما إن انتهى الغداء حتى دنا فرانك إلى زوجته فاعتذرت هاربيت وخرجت معه.. التقطت مارسيلا محرجة بعض الفتات حقيبتها وارتدت معطفها.. ولكنها لم تلحظ تقدم أوسكار منها لذا انتفضت عند سماع صوته.

ـ ستذهبين الآن؟ آسف لأنني أخفتك.. اجلسي معي بضع دقائق إن سمحت.

نظر الرجال الآخرون إليهما بفضول ثم ابتعدوا. وأشار أوسكار إلى نادلة حتى تجلب لهما القهوة.. فقالت مارسيلا ساخطة بسبب تصرفه المتسلط:

ـ لقد أنهيت غدائي.

ـ أعرف.. لن يضرك فنجان قهوة آخر.

عندما وضعت القهوة أمامهما عرض عليها السكر:

ـ سمعتك تذكرين ذلك المساء أنك تخرجين مسرحية؟

تساءلت في نفسها لماذا يهتم بهذا.

ـ أجل.

ـ وصديقك الطيب ستين دويل مشارك فيها؟

تأهبت للدفاع:

ـ أجل.. وماذا في هذا؟

ـ كنت أتساءل فقط.. ليس للأمر علاقة بهذا حقاً.. في السنوات الثلاث الماضية، بسبب عدم وجود ما يشغل ساعات الفراغ، بدأت أهتم بالمسرح.

ـ سمعت أن الاهتمام بالمسرح ليس بأمر غريب بين المهندسين.

ـ هذا صحيح.. إنه يروق للجانب الفني من طبيعتهم.

ابتسم لها لأول مرة، فشعرت بأن جسدها غارق في الدفء، وكأن شخصاً ما سلّط عليها الشمس..

أردف: «كنت سأطلب منك، بما أنك المخرجة ما إذا كنت توافقين على استخدام خدماتي كمصمم للمسرح. وكما سبق أن قلت لدي تجربة، ومعي توصيات جيدة.. فهل قدمت نفسي بشكل جيد للحصول على هذا العمل؟»

أذهلها العرض ولأنها لم تشأ أن تبدو ملهوفة قالت:

ـ أنت لا تعرف ما هي الرواية. قد تكون أصعب من أن تتولى تصميمها.

ـ لا يصعب عليّ شيء.. فما هو ردك؟

ـ ردي هو نعم، وشكراً لك لأنك تريد مشاركتنا. كلنا هواة، ولكننا نستمتع بما نفعل ونأمل أن يستمتع المشاهدون أيضاً، وأعتقد أنك ستضفي

على الانتاج بريقاً ورونقاً.

ـ شكراً.. هذا إطراء منك.. لم أعرف أنك تقدرين عملي.

تورد وجهها: «طالما ظننتك بارعاً في مضمار عملك».

ـ في مضمار عملي؟ أما في حقل الزواج فكنت فاشلاً برأيك.

ضجت أذنيها بعنف ومرارة خصامهما الأخير، وكأنها تصغي إلى إعادة لتمثيلية إذاعية غير سارة.

ـ لقد تركتني.

ـ وتعرفين السبب.

دفع الكرسي إلى الوراء، ثم تناول فاتورة غدائها عن الطاولة، وفاتورة القهوة، ولكنها حاولت أخذها منه.

ـ هذه لي.

ـ دعي لي هذا الشرف.. ألن أعمل في المسرحية تحت إدارتك.. يجب أن أظهر على الأقل بعض الود.

سألها في الشارع:

ـ متى موعد التمرين التالي؟

ـ الليلة.. أتستطيع القدوم؟

ـ نعم أستطيع، متى وأين؟

ذكرت له المكان والعنوان ومضى.

* * *

وضع أحدهم شريطاً مسجلاً في القاعة الباردة.. فصدحت الموسيقى بشكل مؤثر.

سبقت مارسيلا ستين إلى القاعة، وهناك شاهدت أوسكار واقفاً وحده قرب جهاز التسجيل ويداه في جيبيه، ضائعاً في أفكاره. عندما كانت تمرر المشط في شعرها.. أخذت تصغي إلى الموسيقى التي أرجعتها نغماتها إلى الماضي، إلى الفترة الأولى في زواجهما، عندما كانت تجلس معه متعانقين،

يصغيان إليها.. كانا قد اشتريا نسخة مستعملة من التسجيل بعد ظهر يوم في السوق المحلي، وكان جهاز التسجيل مستعملاً أيضاً. رفع أوسكار رأسه، فشاهدها، ثم شاهد ستين إلى جانبها فتبدلت ملامح وجهه، ثم توقفت الموسيقى، فتحطم سحر اللحظة.. وعاد الحاضر إليهما كضباب كثيف ليمنع عنهما رؤية الماضي.

أخذ ستين منها معطفها، ونفضه من قطرات المطر التي التصقت به أثناء المسير من السيارة إلى القاعة. والسبب في هذه العناية الفائقة، التأثير في الرجل الذي يراقبهما بعينين ضيقتين من طرف القاعة الآخر، ووضع معطفه قرب معطفها ليوحي بأن كل واحد منهما ينتمي إلى الآخر كما هو حال مالكيهما. ولكن أوسكار لم يبدُ متأثراً، فابتسم بخفة.

قامت مارسيلا بالتعارف.

ـ تعالوا جميعاً لتتعرفوا إلى أوسكار.. لقد عرض عليّ بكل لطف الإشراف على الجانب الهندسي في المسرحية.

تمتم أحد الشبان المشاركين.

ـ آه.. لقد حصلنا إذن على ما يعرف تقنياً بالمدير الفني.

قالت مارسيلا لأوسكار: «هذا ستين دويل، الممثل الرئيسي».

تمتم ستين بابتسامة مداهنة: «مرحباً أوسكار».

أخفى انزعاجه الشديد الذي أبداه عندما أخبرته مارسيلا بانضمام أوسكار إليهم.

نظر أوسكار إلى ستين وقال بجفاء: «سبق أن التقينا».

توجهت مارسيلا بكلامها إلى المجموعة، تكمل التعارف:

ـ لوسي مسؤولة عن الماكياج.. كولمان هو الكهرباني، وتيد هو مدير المسرح. وجولي مسؤولة الأزياء، وهذا تود، باتي، دايف...

قاطعها دايف:

ـ ممثلون هواة.

قالت دوللي، وعيناها على أوسكار: «لا تنسوني».

قالت مارسيلا: «إنها السيدة الأولى.. دوللي جونز».

تقدمت دوللي إلى أوسكار ليراها جيداً..

ـ ما أروع أن نرى رجلاً جديداً هنا.

قدّرت عينا أوسكار سحر السيدة الأولى.. كانت قصيرة، وهذا ما مكنها من التحديق بجو من العجز في وجوه الرجال. مظهرها وعيناها براقتان، وكأن النور مضاء فيهما.

سألت: «أوسكار، ماذا؟»

تردد قليلاً ثم أخبرها.

ـ بلووم.

التفتت إلى مارسيلا.

ـ بلووم..؟ بلووم آخر.. هذا أمر غريب، هل...؟

قاطعها أوسكار موجهاً ابتسامة سريعة نحو مارسيلا:

ـ لا.. لا علاقة أبداً..

قالت مارسيلا وهي تشعر بالألم لأنه أنكر بسرعة علاقته بها:

ـ نحن.. نعمل في المكتب نفسه.

ابتسم أوسكار إلى دوللي ابتسامة تشجيع، فتجاوبت معه بلمس ذراعه، قائلة: «ليتك الممثل الرئيسي».

ضحك: «بعد لقائي بالسيدة الأولى بتُّ أتمنى ذلك أيضاً».

ضحك الآخرون، أما مارسيلا فارتدت بحدة، تقول:

ـ هل لدى الجميع نسخ عن المسرحية؟

قال أوسكار: «ليس لدي واحدة».

قالت دوللي: «شاركني نسختي».

ضغطت نفسها إليه ووضعت المسرحية المكتوبة أمامه.

قالت مارسيلا بحدة: «لا يمكنه ذلك، فستكونين أنت على المسرح أما هو فسيبقى هنا للمراقبة وحتى يحصل على نسخة أخرى سيضطر إلى مشاركتي نسختي».

رفع أوسكار ذراعه من حول كتفي دوللي:

ـ أمر مؤسف.

نظر إلى مارسيلا بخبث ولكنها حاولت أن تظهر لا مبالاتها المطلقة ومع ذلك لم تستطع إخفاء الألم من عينيها.

نادت مارسيلا الجميع: «إلى المسرح جميعاً».

صعد ستين مع الآخرين.. همس أوسكار في أذنها:

ـ هل ندمت لقبولك عرضي بالمساعدة؟

ردت هامسة بشراسة: «لك الحرية المطلقة في اختيار العدد الذي تريد من الصديقات».

رد بلطف: «أشكرك لأنك أذنت لي ولكنني لا أحتاج إلى إذنك هذا».

تمتمت: «فلنغير الموضوع ولنباشر العمل».

وجد أوسكار كرسياً جلس عليه إلى جانب مارسيلا. وضع أصابعه حول معصمها بحرك اليد التي تحمل النص ليكون في ما بينهما لا في حضنها ثم أراح ذراعه على مؤخرة كرسيها.. فتقارب وجهاهما بحيث لامس شعرها خده، فمد يده يرجع لها خصلات شعرها إلى ما وراء أذنها، وكأنهما على وفاق حميم.

كان ستين من موقعه المرتفع على المسرح يراقب كل حركة تجري بينهما.. وكان أوسكار يعرف ذلك تماماً.

لم يعتد الممثلون على أدوارهم، كانوا متشنجين، يقرأون الكلمات عوضاً عن قولها غيباً.

تنهدت مارسيلا، وقالت للجميع:

ـ يجب أن تسترخوا.. فهذه كوميديا لا مأساة.. فلنكرر المشهد بين جاكلين وألفونس، حيث يحاول ألفونس إقناع جاكلين بترك خطيبها والفرار معه.

وقفت دوللي وستين على المسرح وحدهما وأعادا المشهد.

رفعت مارسيلا يدها إلى رأسها:

ـ هذا غير جيد ستين.. عليك أن تكون أكثر إقناعاً.. عليك أن تكون متسلطاً فما من فتاة قد تصغي إليك إن كلّمتها بهذه اللهجة فكيف بك إن كنت تريد إقناعها بالهرب؟

ناداه أوسكار: «تظاهر بأنك تكلم مارسيلا».

ضحك الجميع إلا ستين الذي تلون خداه الشاحبان باللون الأحمر القاني بسبب السخرية الواضحة.. وظنه الآخرون محرجاً ولكن مارسيلا وأوسكار عرفا أنه غاضب.. نظرت مارسيلا إلى أوسكار نظرة قد تخجل أي إنسان ولكن لم يرف له جفن بل قابلها بضحكة.

كان لسخرية أوسكار أثرها، فقد أصبح أداء ستين أكثر اندفاعاً، مع أنه ظلّ ضمن حدود ترسمها له شخصيته. عرفت مارسيلا أن هناك حداً لقدرته على التعبير، ولكنها تعرف أيضاً أن عليه حتى يمثل هذا الدور أن يخترق هذا الحد.. أما دوللي فقد أبلت حسناً.

عندما انتهى التدريب، راح الممثلون والمساعدون ينصرفون إلى بيوتهم. أما ستين فحمل المعطف لمارسيلا.. ولكن أوسكار سألها: «هل لي أن أقلك إلى منزلك؟»

ـ شكراً.. ولكن ستين أوصلني وهو سيعيدني.

ابتسم ستين ابتسامة رضى، وساعدها على ارتداء معطفها فيما همّ أوسكار كتفيه:

ـ قمت بواجبي.. عرضت على زوجتي أن أقلها.

طافت عيناه في القاعة التي أخذت تفرغ بسرعة. فقالت مارسيلا بجفاء: «سيخولك ذلك اصطحاب دوللي إلى منزلها».

ابتسم بخبث: «ما أقدرك على قراءة أفكاري يا حبيبتي وهي مقدرة اكتسبتها نتيجة صلتنا الحميمة في الماضي».

انتظر ليرى مدى تأثير كلامه على رفيق مارسيلا، ولم يخب ظنه.. ثم نادى في القاعة: «دوللي أتودين أن أقلك؟»

ردت وهي تنضم إليه: «ما أحب ذلك إليّ».

أمسك ذراعها بدون أن يضيف كلمة أخرى ثم توجه معها إلى الباب.

في الصباح التالي، زارت مارسيلا السيدة دويل. فتح لها ستين الباب:

ـ أمي متفعلة.. اصعدي إليها.. وصلتنا رسالة أخرى.

كان وجه السيدة دويل المشبع بالألم ممتقعاً، وبدها مرتجفة.

ـ اقرئي الرسالة يا عزيزتي، سيكون هناك تحقيق علني.

سأل ستين: «هل سنبقى معاً؟ وهل سنقاوم حتى النهاية؟»

أجابت: «بالتأكيد».

قادت مارسيلا سيارتها في اليوم التالي إلى عملها، حيث ركنتها في مكانها المعتاد. جمعت أغراضها وخرجت، في الوقت الذي كانت فيه سيارة أخرى تلج إلى الموقف.

قال أوسكار: «أليست هذه المخرجة؟ أهذه سيارة مستعملة؟»

ـ طبعاً.. ومن أين لي المال لشراء سيارة جديدة؟

هز كتفيه: «ربما من جارك الجدير بالتقدير؟ فمن المعروف أن الرجال يهدون النساء الكثير من الهدايا».

سارا معاً في الطريق نحو المكتب.. فردت عليه بحدة:

ـ أيجب أن تبدأ هذا في الصباح الباكر؟ ليس صديقي بالطريقة التي تشير إليها ولست عشيقته.. هل هذا واضح؟

نظر إليها رافعاً حاجبه: «صحيح؟ ولكنه تصرف ليلة أمس وكأنك تحت إمرته».

قالت بغطرسة: «لك أن تظن بالطريقة التي تريد».

وسارت في الاتجاه المعاكس نحو مكتبها.

استدعاها السيد مولدون، وعندما عادت إلى مكتبها قالت هاربيت: «أرسل زوجك في طلبك».

أجفلها التعبير فأردفت هاربيت:

ـ ما بك؟ ما زال زوجك.. أليس كذلك؟

ضحكت مارسيلا ضحكة صفراء: «أجل ولكنني لم أعتد حتى الآن على

رجوعه إلى هنا.. ونحن لسنا...»

وصمتت فأردفت هاربيت: «أعرف، لا نسكنان معاً.. على أي حال، لقد أرسل في طلبك.. ومن الأفضل أن تذهبي إليه».

عندما دخلت كان على وجه أوسكار ابتسامة تثير الأعصاب. كان مستنداً إلى الوراء في مقعده، وكأنه جالس في مقعد ضخم مريح التنجيد. نظر إليها بعينين ضيقتين، وقال ساخراً:

ـ ما أروع أن أعلم أنك مضطرة لتنفيذ أوامري بلا نقاش، فهل ستطيعينني في ما لو طلبت منك الخروج لشراء شوكولا لصديقتي؟

ـ ليس لديك صديقة!

ـ ليس لدي؟ وكيف تعرفين؟ دوللي.. فتاة لطيفة!

مال الى الأمام ليستند إلى مكتبه.

ـ حقاً؟ لم أكن أعرف. أعرفها فقط كممثلة هاوية.

ـ آه.. من الواضح إذن أنني أصبحت أعرفها أكثر منك.. على أي حال، أوصلتها إلى منزلها ليلة أمس.

وقفت: «أهذا ما تريد قوله؟ إذا كان هذا هو الحال، فاسمح لي.. لدي عمل أقوم به!»

تغير وجهه وأصبح وجه رجل عملي.

ـ لا.. لن أسمح لك.. لدي مؤتمر قادم بعد شهر أو شهرين في «الميدلاند».. وقد كتبت كلمة سألقيها أمام المجلس عليك طباعتها.

أعطاها الأوراق: «وأريد اصطحاب سكرتيرة معي لأنني بحاجة إلى تلخيص تفصيلي لما يجري».

أجفلت: «أنت لن تطلب مني الذهاب معك».

ـ بالطبع لا.. والأسباب واضحة.

ـ لن تذهب هاربيت بسبب فرانك.

ـ أدرك هذا.. هناك موظفات غيرها.

ـ هناك غابل وجانيس...

ـ وهل هما متزوجتان؟

ـ لا بل ليستا مخطوبتين حتى.

ـ حسناً.. سأستقصي أمرهما.. المسألة أنني أريد حجز غرفة لي وغرفة لمن سترافقني.

ـ أهذا كل شيء؟

ـ أجل.. شكراً.

نظرت إلى الصفحات المكتوبة التي أعطاها لها.

ـ قد يستغرق مني طباعتها بعض الوقت.. لدي عمل للسيد مولدون.

ـ لست على عجلة من أمري. اطبعيها متى سمح لك الوقت.. أترين؟ لست مستبداً.

وضحك فردت بابتسامة: «هذا خير لك لأنني لست عبدة أحد».

سافر فيليب تورنر في إجازته الشتوية الطويلة.. وسرت إشاعة أنه قد لا يعود إلى عمله، وأن تقاعده وشيك.. ولعل ما أكّد هذا التوقع انتقال أوسكار بلووم إلى مكتب السيد تورنر.. افترضت مارسيلا أن أوسكار قد أصبح رسمياً شريك السيد مولدون.

ذات صباح، ذهبت مارسيلا إلى مكتب أوسكار الجديد، فشعرت بأنها تفتقد العجوز ودفئه وتفهمه.. عندما كانت تدخل على السيد تورنر، لم يكن قلبها يخفق كما يخفق الآن.. أعادته نسخة من المسرحية قائلة:

ـ وصلت بالبريد هذا الصباح.

أخذها منها: «سأقرأها في أقرب فرصة».

ـ هناك تمرين الليلة.

ـ أعرف.. ولكن لسوء الحظ أنني مرتبط بموعد.

حاولت عدم إظهار خيبة أملها: «آه!»

راجع الصفحات: «سأتناول العشاء مع زبونة وهي أرملة تريد بناء منزل لها.. التقيتها مؤخراً في حفل رسمي حضرته.. وسألتني عما إذا كنت أستطيع تولي أمر التخطيط بنفسي إذ لا علاقة للمؤسسة بهذا الموضوع»

ـ ما حاجتها إلى بناء منزل وهي أرملة؟

ـ هذا ما لا أطرحه أبداً. عملي هو وضع التصميم، لا طرح الأسئلة.

أحست أنه أوقفها عند حدها. أضاف:

ـ إنها ثرية، ترك لها زوجها مالاً وفيراً، ولديها ولد صغير، في السادسة من عمره.

ـ وستعيش معها؟

ـ سأتعشى معها.

تمنت لو يتوقف عن ترداد كلماتها. سألت: «الليلة؟»

ابتسم أوسكار، وقال بعلوية: «نحن متفضلان رسمياً لذا لست مضطراً إلى تقديم تقرير عن جميع تحركاتي ودوافعي».

تركت غرفته صافقة الباب خلفها، ثم تمنت لو أنها لم تفعل، لأنها بذلك أفصحت عن مدى ضعفها أمامه.

جرى التحقيق العام.. وتقدم المحامي بالوكالة عن أسرة دويل وحضر ستين وأمه كشهود.. وهناك قدما اعتراضاتهما واستئنافهما ضد الشراء القصري، وطلبا إلغاءه. ولكن الاستئناف فشل..

حينما زارت مارسيلا ستين بعد العمل وجدت أمه باكية.

ـ لن أستسلم.. سأبقى هنا.. حتى ولو أرسلوا مأمور التنفيذ.. هذا بيتي الذي ليس لي مكان غيره.. حتى أنني لست مكتملة الصحة.

حاولت مارسيلا مواساتها، ولكنها لم تفلح.

أخبرت هاربيت فرانك، وفرانك أخبر أوسكار.. وقت الغداء جلس أوسكار إلى جانب مارسيلا فانسحبت هاربيت بكل لياقة وانضمت إلى زوجها والآخرين.

ـ إذن خسرتم الاستئناف؟

قالت، مدافعة: «نعم.. ولكننا لن نستسلم».

ـ سيرسلون مأمور التنفيذ. وهو غير معروف بلطفه في التعامل مع من يتحدونه.. أكره أن أراك تتألمين.

تمتمت: «ما أسمعه إما أكبر كذبة وإما أعظم سخرية».

هز كتفيه وأبعد فنجان قهوته الفارغ: «إلى أين ستذهبين؟»

ـ ليس لدي فكرة.

ـ هل ستنتقلين مع ستين وأمه مجدداً؟

ـ لا.. لدى السيدة دويل شقيقة قد تأويها مؤقتاً.

ـ وستين؟ بإمكانكما المشاركة.

رفعت إليه رأسها لترى ما إذا كان جاداً، ووجدته يبتسم.

قال: «ستنال أمه تعويضاً كبيراً من السلطات المحلية، لن يدفعوا لها ثمن المبنى المتداعي بل ثمن الأرض التي تساوي الكثير.. يكمن صالحك بالالتزام معه على أي حال، عندما تتزوجينه ستتزوجين ماله، لأنه الوريث الوحيد لثروة أمه».

ها هو.. زوجها.. يجلس إلى جوارها مبتسماً، يناقشها بهدوء أمر زواجها برجل آخر..!

ـ ما تقوله هراء!

ـ ستركك في يوم ما إنما عندما يناسبني ذلك.

ـ بعد طلاقنا.. لن أتزوج ثانية.. لن أتزوج رجلاً لا أحبه، أبداً.

ـ أنت الآن تتفوهين بالحماقات. لقد سبق أن فعلت ذلك.. و...

ارتدت إليه بشراسة، والإنكار على شفتيها، لكن فرانك قال من ورائهما:

ـ آفرحان؟

وقالت هاربيت آملة: «أتتصالحان؟»

وقف أوسكار: «كنا نتحدث عما سنفعل عندما يتم الطلاق».

بدت الخيبة على هاربيت فدست ذراعها حول زوجها تتعلق به ردة فعل على ذلك.

صدّق الوزير المختص على قرار المفتش المسؤول عن التحقيق العلني فكان أن خسرت أسرة دويل القضية، وأنذرت المستأجرة رسمياً بالإخلاء..

ما إن أصبح الإنذار بين يديها حتى كادت مارسيلا ترفض التصديق.

طلب منها ستين توضيب ملابسها على أن تترك كل شيء آخر على حاله حتى إذا ما جاء مأمور التنفيذ ساعدها في صد الأبواب ببعض الأثاث.

أخبرت مارسيلا هاربيت بما تنوي أن تفعل، فحاولت دفعها إلى تغيير رأيها ولكن لا طائل مما فعلت. بعد العشاء ذلك المساء جالت مارسيلا في المنزل الذي بدا لها عتيقاً وبشعاً، ولكنها تحب كل جزء منه.. ففيه أمضت أياماً سعيدة في فترة زواجهما الأولى وفيه وجدت التعاسة، ولكن المكان أصبح جزءاً منها..

عادت إلى غرفة النوم لتستلقي فوق السرير.. هنا كان حبهما. تذكرت مدى سعادتهما معاً، والطريقة التي تعلّق كل منهما بالآخر.

سمعت المفتاح يدور في قفل الباب كما كانت تتخيله دائماً.. ولكنه في هذه المرة لم يكن خيالاً إذ انفتح الباب الأمامي فعلاً ثم انغلق. خرجت من الغرفة فوجدت أوسكار ينظر إليها.. أدركت أن شعرها مشعث، ووجهها مغرورق بالدموع.

سألت، على أمل أن تدفعه مشاكستها إلى الخروج قبل أن يلاحظ مدى اضطرابها.

ـ ماذا تريد؟

لكنه قال ساخراً: «لا داعي إلى إظهار هذا السرور كله من أجل قدومي».

عادت مارسيلا إلى غرفة النوم تمشط شعرها آملة أن تخفي البودرة آثار الدموع.. ثم نزلت.

ـ لماذا جئت؟

ـ علمت من هاربيت أنك تنوين تحدي إنذار الإخلاء، فجئت لأقنعك ببعض التعقل.

ـ تهدر وقتك سدى. سأظل هنا مع أسرة دوبل.

ـ حسن جداً.. عليك تقبل ما سيأتيك إذن ولا تتوقعي مني نجدتك.

ـ لا أتوقع شيئاً منك.. ليس بعد الطريقة التي تخليت بها عني.

ارتدت عنه بحدة، غير قادرة على إخفاء الدموع من صوتها. تقدم أوسكار من ورائها ووضع يديه على ذراعيها، وقال بلطف:

ـ مارسيلا.

لكنها لم تتحمل لمسته، بسبب المشاعر التي أثارتها، فانسحبت بسرعة.

قال بصوتٍ قاس: «يا إلهي أنت لا تطيقين لمسة يدي».

أخذ يتجول في الغرفة.. فسألت:

ـ ماذا تفعل؟

ـ أبحث عما آخذه.

أطلقت عقال غضبها فصاحت:

ـ خذ كل شيء! خذ المقاعد، الخزانة، السجادة، خذ أدوات الطعام والآنية الخزفية، كل شيء.. خذها الآن. لا أريدها، لا أريد شيئاً كنا نتشاركه..

رمت نفسها على الأريكة دافنة وجهها في وسادته مجهشة بالبكاء.

تجاهلها، وتابع جولته في الغرفة ينظر في الأدراج. يلتقط شيئاً من هنا وشيئاً من هناك، ثم دخل إلى المطبخ، فغرف النوم، يبحث بشكل مدروس في الخزائن وأدراجها.

عاد إلى غرفة الجلوس ليقول:

ـ هناك التسجيلات.. أتريدينها؟

لم ترد.. فوضعها في كيسه، ثم خرج.

* * *

٤ ـ حتى الذكريات رحلت

لم يعد أوسكار لحضور تدريبات المسرحية.. إذ قال إن لا فائدة من حضورها.. وهو على أي حال مشغول في العمل.

أدركت مارسيلا حتى بدون أن يقول، أنه يرى زبونته كثيراً.. فقد شاهدتها برفقته في سيارته، مع ابنها الصغير. وفي إحدى المرات شاهدته يقود سيارتها فبدوا وكأنهم عائلة.

فكرت مارسيلا بيؤس: «هل تعرف أنها تخرج مع رجل متزوج؟»..

أخذ أوسكار مرة زبونته للغداء في المطعم الذي يرتاده جميع الموظفين. كانت شقراء، نحيلة الجسم، ترتدي معطفاً من الفراء ثمنه ثروة.. حسدتها مارسيلا على اتزانها، وثقتها بنفسها، وهذا نتاج واضح للثراء الذي ورثته، وكان برفقتها ابنها الرائع الذي كان يعامله أوسكار وكأنه والد الطفل بالتبني.

عرّف المرأة إلى الآخرين قائلاً إنها «ماريون لاينود، زبونة عندي» ولم يزعج نفسه بأن يعرفها إلى مارسيلا.

بعد ظهر أحد الأيام عادت مارسيلا من عند السيد مولدون فوجدت هاربيت منفعلة:

ـ اتصل ستين وقال إن مأموري التنفيذ حضروا إلى منزلك.. ودخلوا إليه من النافذة ثم أخرجوا أغراضك إلى الباحة الأمامية.

أحست مارسيلا بالدوار، فجلست.. نظرت إلى الجو الملبد وإلى المطر المنهمر.

ـ لا!.. هاربيت.. ماذا أفعل؟ يجب أن أذهب إلى البيت.

هل قالت البيت؟ ليس عندها بيت الآن. عندما أخبرت السيد مولدون، تعاطف معها، وسمح لها بالذهاب فوراً.

كان المنظر الذي استقبل مارسيلا أشبه بالكابوس. فقد شاهدت عيناها المنظر ولكن عقلها رفض قبول الأمر الواقع. فها جميع أغراضها الخاصة وأثاثها، وحقائبها وستائرها وكتبها وأغراض المطبخ الذي تحطم قسم منها مرمية في الحديقة الأمامية، حيث تركها مأمور التنفيذ ومساعدوه.

خرج ستين شاحب الوجه.

ـ لم أستطع القيام بشيء مارسيلا.. فحين وصلت أمي بصعوبة إلى الهاتف لتحذرني، كانوا قد أفرغوا منزلك.. أما منزلنا فتركوه احتراماً لأمي لأنها توسلت إليهم الانتظار حتى عودتي.. لقد استأجرت سيارة أجرة أقلّها إلى منزل أختها.. ووعدت المأمور أن أوضب أغراضي وأخرج بهدوء.. يؤسفني ما آلت إليه الأمور مارسيلا.. كنا ننوي البقاء والمقاومة.. لكن..

أجهشت بالبكاء لأنها لم تستطع الحؤول دون ذلك فسارع يضمها.

ـ المطر يبللك، تعالي إلى مكان جاف..

قادها إلى منزله، حيث بكت على صدره، ثم قال بلهفة:

ـ يجب أن نفعل شيئاً بأغراضك مارسيلا.. لا تستطيع إدخالها إلى هنا. إذا بقيت في الخارج مدة أطول فسدت كلها.

بكت مجدداً، تخفي وجهها في صدره كطفل عاجز.

ـ لا أدري ما سأفعل..

ـ مارسيلا؟

كان الصوت صوت أوسكار:

ـ هلا ابتعدت عن محبوبك لدقائق.. أحتاج إلى مساعدته.

رفعت رأسها، وأبعد ستين يديه عنها محرجاً..

قال أوسكار: «ستين.. هلا ساعدتني على وضع هذا المشمّع، استعرته

من بنّاء أعرفه فهو سيحمي على الأقل الأغراض المرمية خارجاً حتى تنقل إلى مكان آخر».

بعد فترة عاد أوسكار وحده.

ـ مارسيلا.. لقد حجزت لك غرفة في فندق الكارلتون.. بإمكانك قضاء أسبوع فيه حتى تقرري ما تريدين فعله.

الكارلتون أكبر الفنادق في المدينة.. قالت له ببلادة:

ـ لا أستطيع تحمل أجرة الكارلتون.

تعرف أن عليها شكره، ولكنها أبعد ما تكون عن الشعور بالامتنان تجاه أحد. تجاهل قولها، ليقول لستين:

ـ أما أنت، فلديك مكان تذهب إليه؟

ـ أجل.. منزل خالتي.

نظر أوسكار حوله:

ـ أمامك ما يشغلك هنا.

وقفت مارسيلا: «سأبقى حتى أساعد ستين».

قال أوسكار بهدوء: «بل ستذهبين إلى الفندق.. لديك ما يكفيك من المتاعب».

ـ إنما لا أستطيع ترك ستين..

قال ستين: «اذهبي مارسيلا.. سأتدبر أمري بطريقة ما. أمهلوني يومين».

سألها أوسكار فجأة: «أين سيارتك؟ ألديك القدرة على القيادة؟ حسناً.. هاك ثلاث حقائب وحقيبة كتف وجدتها في الحديقة.. فيها على ما أظن ملابسك.. الحقائب رطبة، ولكنني أتصور أن ما بداخلها جاف.. شرحت الموقف لإدارة الفندق، فأبدوا تعاطفهم لذا أنا واثق بأنهم سيساعدونك إذا اضطر الأمر».

نقل الحقائب إلى سيارتها ثم ركب سيارته وغادر. استقبلتها في الفندق الضخم فتاة لطيفة أبدت تعاطفها.

ـ أنت السيدة التي توقعنا وصولها.. أخرجوك من منزلك أليس كذلك؟ اتصل بنا زوجك، يا للحظ السيء، خاصة في يوم ممطر كهذا، قال زوجك إنه سينضم إليك لاحقاً.

وأعطت مارسيلا مفتاح غرفتها.

ينضم إليها لاحقاً؟ ما قصدها؟ شعرت بأن الفتاة أخطأت فهم كلماته ولكنها كانت تشعر بمخاوفها تتصاعد.

تركها الحمال وهي تحاول فتح الباب.. فجأة تذكرت الشرط الذي فرضه أوسكار عليها لتتخلص من زواجهما..

لا ينوي بكل تأكيد فرض هذا الشرط الآن؟

فتحت الباب فتجمدت رعباً.. لم يكن ما رأته مجرد غرفة نوم. كان فيها حمام خاص.. لا ريب أنهم مخطئون.. لن تستطيع تحمل نفقة غرفة بحمام في فندق من الدرجة الأولى.. ولكنها عرفت أن لا خطأ في هذا. في الغد ستطلب نقلها إلى غرفة أكثر تواضعاً.

حملت حقائبها إلى الداخل، ثم أغلقت الباب، وأضاءت النور. رأت ويا للراحة أن الغرفة تحتوي على سرير واحد. فجلست عليه تضع رأسها بين يديها.. ما زال عقلها يدور، قالت لنفسها إن هذا لم يحدث، إنها ليست بلا مأوى.. حقاً، وسرعان ما ستعود إلى البيت لتجده كما كان دوماً، يرحب بها.

واجهتها الحقيقة وكأنها ثور هائج يهدد باجتياحها.. أحست للمرة الثالثة في حياتها بأن عالمها يتحطم، ويقع كشجرة مقطوعة. أولاً، واجهت موت أمها ثم زواج أبيها مجدداً.. ثم هجران زوجها لها والآن جاءها الحرمان النهائي: الخروج بالقوة من المنزل الذي كان بيتها.

بدت الثياب في الحقائب جافة، ولكنها لم تخرجها إذ لا جدوى من ذلك فغداً ستنتقل من هذه الغرفة.

يُقدَّم العشاء بدءاً من السابعة فصاعداً.. لكنها قررت ألا تتناوله بل فضلت أن تطلب بعض الطعام الخفيف إلى غرفتها. شعرت بأن جسمها

متشنج ومغبر. من الأفضل أن تستخدم الحمام الذي سيغسل تعبها ولكن ليته يغسل في طريقه كآبتها.

كان الماء الدافىء الغزير، كالمسكّن، راح الماء ينقطر منها عندما خرجت إلى بساط الحمام حيث لفت المنشفة حول جسدها..

سرعان ما انفتح الباب ووقف أوسكار أمامها.. فشهقت: «كيف دخلت؟»

- على قدمي..

مال إلى الجدار ينظر إليها ويردف:

- هل من عادتك ترك أبوابك مفتوحة؟ أكنت تتوقعين ستين؟

حاولت أن تكون مشاكسة، ولكنها وجدت المشاكسة أمر غير فعال في حالتها الراهنة.

- لا يحق لك أن تكون هنا!

- هذا ما لا أقبله لأن لي كل الحق في ذلك.

وقف متكاسلاً ثم دنا منها:

- نسيت مدى جمالك.

استقرت يداه على خصرها وشدتاها نحوه.

قالت: «نحن منفصلان قانونياً».

ولعنت صوتها على ارتجافه.

- أجل.. على قطعة ورق.. مجرد قطعة ورق تقف بيننا. لو شئت لمزقتها إرباً ولانتفت الحواجز القائمة بيننا.

بدأ يقرّبها منه فقاومته ووجهها يحترق خجلاً.. ولكنه تمكن من ضمها إليه لبضع ثواني، ثم أبعدها.

أخيراً خرج إلى غرفة النوم، فجففت نفسها، وارتدت ثيابها بسرعة.

ناداها: «أعتقد أنك متوترة خشية أن يأتي ستين».

وجدته جالساً في المقعد، وأكمل يسخر منها:

- بما أن لي من الحق ما هو أكثر منه فسأبقى قليلاً. أنا آسف لأنني

أفسدت خططك وإحباطك بضع ساعات.. لكن، بإمكان ستين أن يأتي بعد رحيلي.. هذا إذا خرجت.

وقفت حيث هي: «عليك أن تخرج، فأنت لم تحجز للإقامة هنا».

- بإمكاني التغلب على هذه العقبة، يعرفون أنني زوجك.

عمَّ اليأس قلب مارسيلا، فقالت أول ما تبادر إلى ذهنها:

- هناك.. فقط.. سرير واحد.

- هيا.. هيا، أنت تعرفين أكثر من هذا.. متى كان السرير الواحد عائقاً أمام عاشقين؟

- لسنا عاشقين.

سمعا قرعاً مستعجلاً على الباب.. فتحرك أوسكار مبتعداً وفي عينيه ما يشبه الاحتقار.

- لا.. لسنا عاشقين.. فالمرأة لا تستطيع رمي نفسها على رجلين في آن واحد.

عاد القرع مجدداً.

- ألن تفتحي له؟

فتحت الباب لستين الذي شاهد أوسكار واقفاً خلفها وضاماً ذراعيه مبتسماً فقال متلعثماً:

- أنا.. أنا آسف مارسيلا.. ظننتك بمفردك.. جئت أصطحبك للعشاء.

رد عليه أوسكار بجفاء: «سأصحبها أنا، شكراً على أي حال».

ارتدت مارسيلا إليه:

- لي ملء الحق في اختيار من أريد اصطحابي ولكنني على أي حال غير جائعة، وقد قررت ألا أتعشى.

- لقد حجزت طاولة مارسيلا..

رأت لمعان عينيه، وفكرت أن من الأفضل إبعاد ستين عن المكان.. فقالت له بهدوء:

ـ شكراً ستين . . أشكرك لأنك فكرت فيّ . ولكن، بما أن أوسكار قد حجز . .

ولم تتم الجملة، بل مدت نفسها تقبل خده . فتورد وجهه ونظر بقلق إلى أوسكار، وكأنه يتوقع العقاب . . ولكن لم يرفّ جفن لأوسكار واكتفى بأن وسّع ابتسامته .

ابتسم ستين بدوره ابتسامة لطيفة وكأنه يحاول تهدئة زبون غاضب . وانسحب بكل هدوء .

ارتدت مارسيلا مستعدة لمواجهة غضب أوسكار ولكنه كان يضحك بصوت منخفض :

ـ ما هذا؟ مكافأة استرضاء؟ لو قبلتني فتاة بهذه الطريقة لاعتبرها إهانة .

ـ هل أنت مصر على اصطحابي إلى العشاء . .

ـ أنا مصر .

ـ إذن، سأغير ملابسي .

ـ هيا افعلي . . ماذا تنتظرين؟ لا تتوقعي مني أن أدير ظهري وأنت تخلعين ثيابك، ربما تحتاجين إلى مساعدة؟

تقدم منها مبتسماً، فتحركت مبتعدة بسرعة :

ـ لا . . شكراً لك .

وجدت في أسفل حقيبتها الفستان الوحيد الغالي من المخمل الأحمر، نفضته ليستوي ووضعته على السرير .

عقد أوسكار ذراعيه ثم استند إلى الخزانة يراقبها . . دسّت الفستان فوق رأسها بأصابع مرتبكة، بسبب الاهتمام النابض في عينيه فوق رأسها . . ولكن السحاب الخلفي صعب المنال، فتقدم يقف خلفها . أمسك بيد كتفها، وبالأخرى رفع السحاب . تحركت اليد التي على كتفها إلى عنقها وارتفعت تحت شعرها . وكتمت مارسيلا أنفاسها . لكنه ابتعد وكأنه عمل يومي رتيب . عندما استدارت تواجهه لم تكن عيناه تنمّان عن أية مشاعر أو

أي اضطراب بل عن أي تعبير إطلاقاً .

ـ أتسمحين لي باستخدام الهاتف؟

جلس قرب السرير حيث الهاتف ثم مد يده إلى السماعة وطلب الرقم . . عندما تلقى الرد قال :

ـ ماريون . . ؟ أوسكار معك . آسف لا أستطيع مشاركتك العشاء الليلة . حدث ما منعني . سأكون مشغولاً مدة ساعة أو ساعتين . آتي لاحقاً؟ أجل، سأفعل هذا . . لقد بدأت الخرائط، وسأريك ما فعلته حتى الآن . . كيف حال روبرت؟ كان ينتظرني؟ قولي له إنني آسف لأنني خيبت أمله . . أراه في المرة القادمة . . غداً؟

التفت بسأل مارسيلا التي كانت تضع الماكياج :

ـ هل هناك ممارين على المسرحية غداً مساء؟ هناك؟ آسف ماريون، لا أستطيع . حسن إذن بعد غد . أجل سآتي إلى العشاء . . شكراً . .

وقف قرب مارسيلا يراقبها وهي تضع ظلال، تنحنحت تقول :

ـ كان بإمكانك ترك التمرين إذا كان . . عملك مهماً .

لم يقل شيئاً، فتابعت الموضوع، محاولة إجباره على الرد، وفي الوقت نفسه لإبعاد نفسها عن الغيرة :

ـ من العار أن تخذل طفلاً . لست مضطراً لاصطحابي للعشاء .

ظلّ صامتاً . . فالتفتت إليه، وقلبها يتفطر ألماً .

ـ اذهب إلى ابنك العتيد . . لا أمانع .

ـ هل أنت مستعدة للنزول؟

لكن غيرتها تفوقت على تعقلها :

ـ ستكون زوجة ثرية . . وجميلة أيضاً . . وبما أنني عكسها، فلماذا لا تطلقني وتتزوج بها؟

امتدت يده إلى كتفها مرّة أخرى، وحفرت أصابعه لحمها، تشدها نحو الباب .

ـ تعرفين شرطي حتى أطلقك .

- وإن رفضته؟

- نبقى على حالنا.. ستظلين أنت مرتبطة بي حتى الوقت المطلوب الذي ستتمكنين فيه من التقدم إلى المحكمة بدعوى فسخ زواج.. لكنني بكل تأكيد سأعارضه وسأجعل المحامي يظهر السخاء المادي الذي أغدقه عليك ومشاركتنا في نشاطاتنا الخارجية.. بذلك سأعسّر الأمر عليك.. فمن يستطيع بعد إظهار هذه الدلائل أن يحكم على زواجنا بالفشل؟

ارتدت تضع ظهرها على الباب رافضة السماح له بفتحه:

- لكن.. ماذا ستستفيد من هذا كله؟ فهذا يعني أنك لن تكون حراً.. وبدون طلاق لا يمكنك الزواج مجدداً.

- وهل يهم الرجل أن يكون حرّاً؟ لا تفكر معظم النساء في هذا.. إذا أردن رجلاً..

- وماريون.. تريدك؟

- هذا ما عليّ اكتشافه. لم تتقدم علاقتنا كثيراً حتى الآن.

كانت كيائس صوّبوا إلى قلبه المسدس فسألت:

- لكنك ستعرف؟

- ربما.. أليس هذا هو الجواب الذي تنتظرين؟

نزلا معاً إلى العشاء.

كانت الثريات تلمع فوق الساهرين، الموسيقى الشجيّة تصدح وتدفع المرء إلى الهدوء. فجأة ارتدّ بؤس اليوم والإحساس بالتشرد والشعور بالهجران إلى ما وراء أبواب موصدة في رأس مارسيلا.. ففي تلك اللحظة كان همها منصباً على العشاء الذي ستتناوله مع زوجها.

خلال السنتين اللتين قضياها معاً لم يتمكنا من تحمل ثمن عشاء في الخارج.. والآن.. ويا لسخرية القدر، وجدا المال ولكن الحب كان قد ولّى..

- أوسكار؟

رفع رأسه، وتوقف عن تناول طعامه:

- ماذا سأفعل بالأثاث الذي رماه مأمور التنفيذ إلى الخارج؟

كانت تتوسله عاجزة، كاشفة بذلك عن مدى اعتمادها عليه.

- لقد اهتممت بهذا، اتصلت بشركة شحن ثم أشرفت بعد رحيلك على تحميل الأثاث وقد وعدوا بأن يخففوه ثم يخزنونه لك.

غمرها الإحساس باهتمامه بها، وعبّرت عن امتنانها بحرارة. فأردف: «يجب أن تجدي مكاناً تسكنين فيه.. على أن يكون مفروشاً».

- كنت أفكر في غرفتين.

قال بلهجة حادة: «لماذا؟ لقد ضاعفت نفقتك وأنت تتقاضين راتباً مقبولاً».

- أوسكار! يصعب إيجاد شقة مفروشة.

- وهل أنت آسفة الآن على رفضك تلك التي وجدتها لك؟

- ربما.

ابتسم: «تعرفين أنك آسفة.. إن علمت بوجود شقة كتلك أعلمتك، أما في هذه الأثناء فامكثي هنا».

قالت بوجل: «لا أستطيع، لا أقوى على تحمل نفقتها.. إنه أغلى الفنادق في المدينة».

- أنا من سيسدد الفاتورة مارسيلا.

ثارت: «لن تسددها، لن أسمح لك فذلك سيكلفك ثروة».

وهزت رأسها باستنكار.. فقال:

- ما زلت غير قادرة على نسيان الماضي، عندما كنا مضطرين للادخار والاستغناء عن أشياء كثيرة.. لقد تغيرت الأمور.. سأخبرك شيئاً. السيد تورنر سيتقاعد بعد أسبوعين وسأحل أنا محله شريكاً للسيد مولدون فتصبح المؤسسة باسم مولدون وبلووم، وشركاهم. إن السيد مولدون يدفع لي الآن راتب شريك، حتى قبل أن أستلم المركز رسمياً.. لم أعد فقيراً مارسيلا.

- لا فرق عندي.. لن أسمح لك بمضاعفة نفقتي.

دفع طبقه الفارغ بعيداً، وقال بهدوء وتركيز:

ـ ستبقين هنا مارسيلا حتى أقرر العكس مفهوم؟

ـ شكراً لك.

ولكن الكلمات بدت غير ملائمة في وجه كرمه، فشعرت بعقدة ذنب وتورد وجهها. ابتسم، ومد يده يغطي يدها للحظات:

ـ إن شعورك بالإحراج من هبة زوجك لك لأمر غريب، ولكن الإحراج يناسبك..

عندما انتهت الوجبة سألته: «كيف عرفت بما حدث اليوم؟»

ـ اتصلت بي هاربيت.. وما إن سمعت الخبر، حتى تصرفت. عرفت أنك ستكونين عاجزة عن ترتيب أي شيء كما عرفت أنك ستهرعين إلى المحبوب ستين الذي سيكون أشدّ عجزاً منك.

قالت ساخطة: «لم أهرع إليه بل كان هناك»..

ابتسم وكأنه يتذكر المشهد.

ـ قدم إليك كتفاً لتبكي عليها.. لم تكوني قط امرأة مبادرة في العمل..

في غرفتها وضع يديه مجدداً على ذراعيها، فشدها إليه قليلاً:

ـ ألا يحق لي بعناق بعدما فعلته لك اليوم؟

ارتدت: «لا تكن سخيفاً، لن أعانقك فنحن منفصلان. أنا.. أشكرك.. بل أراني عاجزة عن التعبير عن مدى شكري».

لحق بها مصراً وضمّها مجدداً.

ـ أظهري لي مدى شكرك.. هيّا.

رفع يديه ليحتضن وجهها بين راحتيه هامساً: «يا الله.. يالله.. ما أشد رغبتي في البقاء!»

أحست بقدرتها على المقاومة تتلاشى.

ـ لا.. لا.. يجب ألا نبقى.. أنا زوجتك المهجورة..

أغمضت عينيها، وجاء الظلام إليها فجأة.. أرادت أن يعانقها:

ـ أنا لا أفكر فيك كزوجتي.. بل كامرأة.. امرأة مغرية جذابة.

أحست أن نوراً قوياً أضيء ليعذبها، إنها بالنسبة له مجرد «امرأة

أخرى». تلوّت بين يديه ثم انسحبت قائلة:

ـ لم تشترِ بمالك، إذا كانت هذه الطريقة هي التي تريد بها إظهار امتناني لك فالأفضل أن أنتقل من هذا الفندق في أسرع وقت.. على أي حال، لديك موعد يجب أن تفي به.

حافظ على هدوئه بصعوبة:

ـ لا تقلقي.. لن أبقى.. هل ظننت أنني سأسهل عليك الحصول على حريتك؟ لتهرعي بعد ذلك إلى ستين فتقولي له إنكما ستتمكنان من الزواج قريباً.. أنا ذاهب إلى ماربون التي سترحب بي بذراعين مفتوحين.

عندما خرج، غاصت مارسيلا في فراشها، وتركت لدموعها العنان.

* * *

دخل مايكل جيمسون إلى غرفة السكرتيرات فراح يتحدث إلى الفتيات كل بدورها، منتهياً، كما تعرف مارسيلا بها.

ـ سأقولها لك: لم أرك منذ زمن طويل. كنت في رحلة بحرية، وقد عدت الآن لملاحقتك.. متى ستخرجين معي؟

ـ أعتقد أنني سأضطر إلى القبول يوماً، ولو من أجل إسكاتك فقط.

ـ لم تقولي قط كلمة أصحّ من هذه.. حددي اليوم.

هزت رأسها مبتسمة:

ـ يجب أن أراجع مفكرة المواعيد.. فأنا امرأة كثيرة الأشغال هذه الأيام.. فعندي مسرحية أخرجها.

ـ مسرحية هواة.. هه؟ أخبريني متى العرض لأحضر.. ولكن صدقيني أنني أرغب في الخروج معك.

حاولت التخلص منه: «قريباً مايكل.. قريباً. أعدك».

ابتعد راضياً في الوقت الراهن.

لم تشاهد أوسكار حتى وقت التدريب ذلك المساء، كان هناك عندما دخلت برفقة ستين. لم يحيها كما حيّاها الآخرين، بل تراجع، وابتسامة

ساخرة على وجهه، منتظراً قدومها إليه. دنت منه مترددة: «مرحباً أوسكار».

دخلت دوللي مسرعة:

ـ آسفة على التأخير.

ثم توجهت مباشرة إلى أوسكار، منحية مارسيلا جانباً:

ـ مرحباً أوسكار.

رفعت جسمها لتلثم وجنته فضحك الجميع.. سألها أوسكار مستمتعاً: «ولمَ هذه؟»

ـ لأظهر لك إعجابي بك.

قال ممازحاً وابتسامته موجهة إلى مارسيلا:

ـ وكأنني لا أعرف.

تركته دوللي على مضض ثم انضمت إلى أفراد المجموعة على المسرح، أما مارسيلا فجلست مع الآخرين وسط القاعة.. تحدث أوسكار بهدوء مع كولمان، يخططان للمنظر.. يرسمان ويسجلان الملاحظات.

نادت مارسيلا: «فلنبدأ من البداية».

لم يتمكن ستين من إطلاق نفسه في دور البطل، كان متشنجاً، غير مقنع، ومرتبكاً.

قالت مارسيلا بنفاد صبر: «من المفترض أن يكون هذا المشهد مشهد حب عنيف ستين. يجب أن تنسى وجود المتفرجين.. تصور أن هناك جداراً بينك وبينهم.. وأنك بمفردك مع دوللي».

أحست بحركة إلى جانبها، ورأت أن أوسكار جالس قربها يهمس في أذنها: «مستعد للتخلي عن الكثير في سبيل أن أكون بمفردي معها».

تجاهلته ونادت: «فلنراجع المشهد الذي يقود إلى العناق».

أكملا المشهد، وقامت دوللي بجهدها ليتقدم ستين في أدائه، وضع ذراعيه حولها متردداً وعانقها.

همس أوسكار: «أهكذا يعانقك عندما تكونين معه؟».

غضبت مارسيلا، ونظرت حول القاعة:

ـ أليس بمقدور أحد أن يعلمه كيف يحسن العناق؟

ضحك تيد، ووقف: «هل من متطوع؟.. أنا مثلاً؟»

لكن أوسكار نحاه جانباً، وقال وهو يقفز إلى المسرح:

ـ سأريه كيف يكون العناق، تعالي أيتها الساحرة دوللي كنت تطلبين هذا.

أمسك بها بين ذراعيه يضمها بحنان، يرجعها إلى الوراء حتى اضطرت إلى التعلق به.. عندما تركها، كانت مقطوعة الأنفاس بارقة العينين.

ـ واو! يا له من عناق.

قال: «إنها سنوات الخبرة والتمرين.. حسناً، هل فهمت الفكرة ستين؟»

عاد أوسكار إلى مقعده مبتسماً بسمة رضى، وهمس لمارسيلا:

ـ هل أعاد إليك هذا العناق بعض الذكريات؟

ردت بصوت مختنق ملؤه الكذب: «لا، لم يذكرني بشيء».

استردت رباطة جأشها وقالت بصوت مرتفع:

ـ والآن أنت.. ستين.. جرّب مرة أخرى.. أيمكنك؟

على ما يبدو أن تحدي أوسكار قد خفف من توتره إذ كانت المحاولة أنجح.. فعاد أوسكار يهمس:

ـ أنظري ما فعلته لك! بعد هذا، سيتمكن من معانقتك بشكل جيد أثناء انفرادكما.

* * *

علمت من مايكل أن منزلها سيهدم اليوم فتوجهت بعد تناولها الغداء إلى المكان.

حينما شاهدت العمال شعرت بأنها تشهد عملية إعدام علنية.

كان جماعة من الناس متحلقين حول المكان كسرب من الطيور الكاسرة

التي تنتظر موت الضحية.

عندما كانت تراقب ما يجري التقطت عيناها جسداً مألوفاً يقف على بعد بادرات منها، إنه أوسكار.. خفق قلبها خفقة ممزوجة بالغضب وافترضت أن هاربيت أخبرته عن مكان وجودها. راحت تتأمل الكرة الحديدية وهي تنقض على المنزل..

دخلت بعض الحجارة القرميدية إلى الداخل ثم ارتدت الكرة قليلاً قبل أن تنقض من جديد حيث تطاير المزيد من الحجارة.

أبعدت وجهها وهي تشعر بالغثيان فهي غير قادرة على تحمل منظر انهيار منزلها ومنزل أوسكار الانهيار الأخير.

اقترب أوسكار منها فالتفتت إليه تكلمه بصوت هامس لم يسمعه أحد سواه.

ـ لماذا جئت؟ أتتأكد من عدم بقاء أي جزء من ماضيك واقفاً؟ إنه رمز زواجنا.. الآن لم يعد هناك شيء ولا حتى الذكرى.

سيطرت على صوتها المرتعش ثم أردفت:

ـ جئت ترضي نفسك بالدور الذي ستلعبه في إنشاء وحش من الأسمنت تبنيه مكانه؟

رد بهدوء: «أنا آسف ولكنني لست عاطفياً أمام كومة ردم».

ـ أهذا ما تراه فيه؟ كان بيتنا وكنا سعيدين فيه..

جاءت كلماتها متقطعة بسبب الدموع فرد عليها بصوت فارغ:

ـ وهل كنا سعيدين؟ وهل كانت السعادة سبب انفصالنا؟ كوني صادقة مع نفسك، واعترفي أن زواجنا كان فاشلاً، وأننا بعد شهرين من الجنة هبطنا إلى الأرض حيث اكتشفنا أن واحدنا لا يناسب الآخر.

تحركت الجرافة لإنهاء آخر أعمالها في الهدم.

ارتفع صوت مارسيلا: «لم نكن كما تقول، كنا سنكون سعيدين لولا انصرافك إلى العمل والعمل..».

ـ.. ولولا تركك إياي وحيداً أمسية إثر أمسية لتصاحبي ستين دويل!

ـ كنا شابين بومذاك ولقد كبرنا.

ـ إلام تسعين؟ أتريدين إقناعي بالعودة إليك؟

أدركت مصدومة أن هذا بالضبط ما كانت تقوله. صاحت:

ـ تعود إلي؟ أكاد أضحك على الفكرة حتى تنهمر دموعي من شدة الضحك.

انتظمت بهذه الطريقة منه ثم تحركت مبتعدة.. لكن بؤسها كان يمزقها!

***

٥ ـ البيت حيث القلب

في اليوم التالي عندما كانت مارسيلا تتناول غداءها ترك مايكل الآخرين وجلس إلى جانبها. . اختارت هارييت كالعادة مكاناً قرب زوجها. . أما مارسيلا فكانت مدركة أن أوسكار قادر على سماع كل ما سيقوله مايكل:

ـ ما رأيك بتهديم الحاجز والخروج معي الليلة؟

لن تدعي أن عندها عمل بالمسرحية لأن ذلك غير صحيح ولا تستطيع إدعاء الانشغال أيضاً فليس في الفندق ما تقوم به مساء. ليلة أمس ذهب أوسكار إلى ماريون لاينود. . فلماذا لا تخرج الليلة مع مايكل؟

ـ حسناً. . أجل، شكراً لك مايكل. . .

استرقت نظرة إلى أوسكار آملة أن يكون غير مصغ إلى حديثهما ولكنه على ما يبدو سمع كل شيء وقد علمت ذلك من خلال ابتسامته الساخرة.

قال مايكل: «في السابعة والنصف، فندق الكارلتون، سأصطحب السيدة مارسيلا بلووم».

عندما عاد إلى مائدة الرجال، نظر إلى أوسكار، ثم همس بصوت مرتفع لزميل آخر:

ـ لدي موعد الليلة. . موعد سعيت إليه أسابيع.

في وقت لاحق من ذلك اليوم أرسل أوسكار بطلبها فذهبت إليه وهي تشعر بالذنب وكأنها خالفت القانون. حدجها بنظرة فاحصة.

ـ إذن. . ستخرجين مع مايكل جيمسون؟

ـ أجل. . ولمَ لا؟ أفعل ما أشاء في ساعات فراغي، ولست مضطرة

لطلب الاذن من أجل عقد لقاءات مع أصدقائي.

تراجع عن الرد على التحدي في كلماتها، ونقل عينيه إلى الأوراق أمامه:

ـ هذه لوائح أود أن تطبعيها في أسرع وقت ممكن.

أخذتها مارسيلا، وقفلت راجعة إلى مكتبها.

أتى مايكل راكباً سيارته المتواضعة العتيقة. . ومن هناك اصطحبها إلى المسرح. . في فترة الاستراحة سألها مايكل باهتمام:

ـ كيف هي الأحوال بينك وبين أوسكار؟

هزت كتفيها: «على حالها».

ـ ألا يمكنك طلب الطلاق؟

ـ هذا صعب. . لقد وقعنا اتفاقية انفصال، تمنع الطلاق على أساس الهجر. . وإن أراد أحدنا الطلاق والآخر رفض لم يقع الطلاق. . الأمر ببساطة مسألة انتظار مرور الوقت القانوني حتى يمكنني طلب الطلاق على أساس انهيار الزواج.

ـ هو الآن مسيطر عليك؟

هزت كتفيها غير راغبة في المضي بهذا الموضوع.

عندما انتهت المسرحية أقلّها مايكل إلى الفندق، ووقف في الخارج قائلاً بعدما نظر إلى ساعته:

ـ لم يقفل المقهى أبوابه، فلنتناول بعض القهوة.

وافقت مارسيلا فدخلا من الأبواب المتأرجحة ينفضان الثلج عن أحذيتهما. .

ـ مرحباً مارسيلا.

فغرت فاها من فرط الصدمة. كان أوسكار واقفاً في باب المقهى. . ابتسم ساخراً ناقلاً نظره من مايكل إليها.

نظر مايكل الى أوسكار نظرة ملؤها الكره ولكنه حولها إلى ابتسامة مزيفة:

ـ مرحباً أوسكار.. تصور أن نراك هنا!

رد أوسكار ضاحكاً: «تصور».

حاول مايكل تجاوزه وكأنه غريب يقف في الطريق. لكن أوسكار سارع يستبق مايكل سائلاً: «مارسيلا، مايكل ماذا أقدم لكما؟».

وضع نفسه في مركز المضيف فقال مايكل متجهماً: «سأحمل أنا الطلبات».

أسند أوسكار نفسه إلى منصة الطلبات منتظراً ردهما ثم قال:

ـ عصير الكرز مع الصودا مارسيلا؟ إنه شرابك المفضل، أترين، لم أنس.. وماذا عنك مايكل؟

طلب مايكل القهوة أما أوسكار فأضاف ما يريده ومارسيلا ليأخذ بذلك زمام المبادرة.

ـ اتخذي مكاناً مارسيلا على أن تحتفظي بكرسي لي.

سألها مايكل عندما جلس قربها: «لماذا لم تخبريني بأنه هنا؟».

ـ وما أدراني بهذا لأخبرك.

أشار إلى أوسكار قائلاً: «هل سيبقى معك الليلة؟».

ـ بالتأكيد لا! أخبرتك بما هي عليه الأمور بيننا.

تمتم: «بدأت أتساءل».

شق أوسكار طريقه إليهما حاملاً الطلبات على صينية صغيرة، فقالت بهدوء:

ـ أشكر لك هذه الأمسية اللطيفة مايكل.. لقد استمتعت بها فعلاً.

ـ على الأقل استمتع بها أحدنا.

لمست بيده بيدها: «لا تكن هكذا مايكل أرجوك».

وضع أوسكار الصينية على طاولة مستديرة صغيرة، ثم قال بحرارة: «هل استمتعتما بأمسيتكما؟».

ظل مايكل صامتاً، فاضطرت مارسيلا إلى استلام زمام الأمور:

ـ جداً.. ألم تكن المسرحية رائعة؟

هز مايكل رأسه ثم ارتشف قهوته.. بدت تقطيبته وكأنها جزء أساسي من ملامح وجهه، فالتفتت مارسيلا إلى أوسكار.

ـ لماذا جئت إلى هنا؟

لم يستطع مقاومة ابتسامة:

ـ كي.. آه.. أتكلم معك عن المسرحية.

تابع مايكل ارتشاف قهوته، ووضع الفنجان من يده بحدة ثم قال لمارسيلا: «أنا ذاهب، هلاّ رافقتني إلى الخارج؟».

قالت لأوسكار ببرودة: «أعذرني».

هز رأسه موافقاً: «إنما لا تتأخري بالعودة يا حبيبتي».

رفعت رأسها ولحقت بمايكل إلى الخارج.. فارتدى معطفه وأمسك يدها، يجرها خلفه.

ـ ماذا يعني بحبيبتي؟

قالت نبذته: «يريد إزعاجنا».

بدا أشبه بصبي خاب أمله.. وعانقها مودعاً بمقدار ما أوتي من حرارة، فتقبلت عناقه بلا مقاومة شاعرة بالأسف عليه.

ما إن رحل حتى عادت إلى الفندق فوجدت أوسكار بانتظارها في الردهة وعلى وجهه تصميم أكيد بعدم السماح لها بالفرار إلى غرفتها.

شدها إلى المقهى: «تعالي إلى هنا».

ـ الوقت متأخر.. وسيغلق المقهى أبوابه بعد لحظات.

ـ أنت تقيمين هنا لذا لن يطلبوا منك الرحيل، أريد محادثتك.

ـ ليس بيننا ما نتكلم عنه.. لماذا لا تعترف بأنك جئت بغية التجسس علي؟

قال ساخراً: «أنت على حق.. جئت لألعب دور «المرافق» بالمعنى المجازي».

ردت بسخرية مماثلة: «أشكرك من أعماق قلبي.. سأحذو حذوك في يوم ما عندما تخرج مع ماريون».

رمى رأسه إلى الوراء ضاحكاً.. ثم قال وكأنه يستمتع بالفكرة: «وما أروعه من يوم!»

ـ هل أردت رؤيتي حقاً؟

ـ صدقي أو لا تصدقي.. أجل، مساء الغد سيأتي كولمان إلى شقتي لمناقشة موضوع المناظر ولكننا بحاجة إلى تعاون المخرج، فهل تنضمين إلينا؟

ـ في شقتك؟ ولكنك لم تعطني عنوانك حتى.

ـ لم أعطك إياه؟ علينا تصحيح الوضع فوراً وحالاً يا زوجتي العزيزة سأعطيك بطاقتي.

أخرج بطاقة ثم قال: «مع تحيات زوجك».

أخذت البطاقة منه ووضعتها في حقيبتها.. فأضاف: إنه لأمر مناف للمنطق! زوجة لا تعرف أين يعيش زوجها! حسناً.. أيمكنك المجيء؟

ـ أجل.. أظن هذا.

ـ جيد، سأرسم لك خريطة.

وجد قطعة ورق.

ـ أحب رسم الخرائط.. اقتربي مني لأشرح لك ما أرسم.

اقتربت منه تسمع شرحه.. ثم التفت فجأة إليها وقال هامساً:

ـ يعجبني عطرك.

ـ إنه هدية الميلاد.

ـ لا تقولي إنه من.. ستين.

هزت رأسها.

ـ أكره عطرك إذن.

ضحكت وهي تأخذ الخريطة منه: «متى أصل؟»

ـ متى شئت. أدعوك إلى العشاء. الخدمة مؤمنة للشقة وهذا يعني أنني لا أطبخ.

ـ لا.. شكراً.

هز كتفيه: «كما تريدين».

تثاءبت مارسيلا: «أنا متعبة، هل أستطيع الخلود إلى غرفتي؟»

حملت حقيبتها فقال: «رافقيني إلى الخارج».

ارتدت معطفها وخرجت معه.

ـ أعتقد أنك عانقت مايكل مودعة؟

قالت تعتذر: «اضطررت إلى ذلك فقد خيّب وجودك أمله!».

ـ وهل خاب أملك أنت أيضاً؟

رأت أن من الأفضل المراوغة.

ـ ليس لدي شعور ما حيال الموضوع.

أمسك معصميها وشدها إليه، يقول بعصبية:

ـ أنت تتعمدين إغرائي.

كانت أصابعه تحفر لحمها ولكنها تحملت الألم على جعله يعرف بأنه يؤلمها.. ساد صمت قصير انقطعت خلاله أنفاسهما.. هل سيعانقها؟

لكنه تركها قائلاً: «تصبحين على خير مارسيلا».

عندما وصلت مارسيلا إلى شقة أوسكار في المساء التالي، فتح لها كولمان الباب، قائلاً إن أوسكار قد نشر كل الخرائط على مائدة الطعام.

ـ إنه في عالمه الطبيعي.. غائص في الأوراق. وأجدني غير قادر على تأمين ما يكفي من أقلام له.

كادت مارسيلا تقول: «هذا ما يعيد إليّ الذكريات!» لكنها منعت نفسها في الوقت الملائم.

ناداهما أوسكار:

ـ السبب هو المهندس الكامن في داخلي.. فأنا أرى الأشياء من منظار الخرائط والرسومات.

سأله كولمان: «حتى النساء؟»

جاء الرد: «بطريقة ما.. أجل. عندما أفكر في امرأة أفكر في شكلها وحناياها.. ولكنني لم أرسم خريطة لامرأة يوماً.. وقد يكون تحدياً كبيراً أن أرسم مخطط المرأة الكاملة. إنّ الفكرة تغريني».

نظر إلى مارسيلا، ثم عاد إلى رسوماته: «حسناً مارسيلا، أتعجبك شقتي؟».

ـ حتى الآن أجل..

ـ ألقي نظرة على الشقة، وتصوري أنها لك، وأنك تشاركينها مع رجل.. معي، إذا شئت.

وابتسم لها ابتسامة خبيثة.

عندما تصادمت عيونهما اضطرت مارسيلا إلى الانسحاب أولاً.. ما إن خرجت من غرفة الطعام إلى المطبخ حتى أطلقت تنهيدة حسد:

ـ يا له من مطبخ جميل!

انضم إليها يقول ضاحكاً:

ـ فيه كل شيء. كل الآلات الحديثة ورجل منسجم معها. وهناك غرفة النوم الرائعة التي فيها سرير مزدوج. هل من عرض؟

ضحك كولمان من غرفة الطعام:

ـ أنت سريع في العمل أوسكار، لم تعرف مارسيلا إلا منذ بضعة أسابيع، وها أنت تقدم لها اقتراحاً غير لائق!

تبادل الرجلان ابتسامات سرية، ثم تابع:

ـ على أي حال، وحكماً على ما أعرف عنها، أشك في أن تكون من ذلك الصنف من الفتيات.

رد أوسكار بصوت منخفض ملؤه عديم التصديق: «أليست من ذلك الصنف؟!!»

قالت مارسيلا بحزم: كنت متزوجة من قبل، لا تنسَ.

نظرت إلى أوسكار مباشرة: «لدغة واحدة أكثر من كافية».

عبس أوسكار: «أنت تدهشيني..».

نظر إليها ساخراً وعاد إلى عمله.

قالت بحدة، تنظر من فوق كتفه: «ماذا تفعل؟»

ـ اقتربي ترَي.

وراح يشرح ما يفعل بإسهاب. فقالت: «لم أعرف أنك قمت بمثل هذا العمل من قبل».

رفع رأسه بسرعة مقطباً، محذراً:

ـ وكيف يمكن لك أن تعرفي.. وأنا لا أعرفك إلا منذ فترة وجيزة؟

تورد وجهها قليلاً، وقالت: «أجل، صحيح».

قال لها أوسكار:

ـ اقتربي.. انظري الآن.. ترين أنني رسمت المشاهد كما ستظهر للمتفرجين..

قال كولمان: «يا الله! سيكون عملاً محترفاً. لم يسبق أن ساعدنا شخص مميز مثلك».

ابتسم أوسكار:

ـ إنه يجري في دمي. تعلمت أثناء دراسة الهندسة ألا أهمل أية تفاصيل.. ولم أحب يوماً ترك عمل ما بدون أن أتمّه..

كان ينظر إلى مارسيلا.. فتحركت مبتعدة قائلة بينها وبين نفسها إنها تتخيل المعنى الكامن وراء كلماته ولكنه أضاف يقول:

ـ عودي إلى هنا سيدتي المخرجة.

عادت إلى جانبه:

ـ ألا تدركين أن من المهم أن يفهم أحدنا الآخر؟ يجب أن يكون هناك تشاور دؤوب بين المصمم والمخرج، فذلك مهم جداً لإنجاح الإخراج.. أحضري كرسياً، واجلسي قربي.

ابتسم ساخراً: «هل أنت خائفة مني؟ أنا لا أعض بل النساء من يفعلن ذلك».

ضحك كولمان: «أنت تعرف الكثير عن النساء.. أين تعلمت هذا؟»

نظر إلى مارسيلا الجالسة قربه:

ـ أوه.. في مدرسة الحياة.. وكان عندي عدد من الصديقات.

نظرت إليه.. عم يتحدث؟ كان الرجل الذي تزوجته شاباً هادئاً،

رزيناً مخلصاً لعمله. إذن هو يخادع بغية إثارتها.

قال أوسكار: «هيا كولمان.. فلندرس هذه الخرائط».

جلس كولمان إلى جانبه:

ـ هنا، تحت النافذة، ثمة أريكة قديمة الطراز، ومرآة.. سأحاول تركيز الضوء حتى ينصبّ على المرآة فينعكس على الأريكة في مشهد الحب.

ـ بمناسبة الحديث عن الحب مارسيلا.. أيتقدم ستين إلى الأحسن في عناقه؟

ابتسمت بإثارة: «علناً أم سرّاً؟»

كشّر عن أسنانه لحظات عارفاً أن كولمان لن يتنبه للمسرحية الدائرة بينهما.

ـ علناً طبعاً.

ـ إنه يتحسن.. إذ أعلمه في السر.

رفع يده من خلفها وشد شعرها، فصاحت ألماً.. أنبهما كولمان بشدة:

ـ والآن أنتما! نحن نعمل.. أما المرح فلياتِ لاحقاً.

ـ أسمعت مارسيلا؟ أيمكنك الانتظار؟

وابتسم.. فأشارت إلى الرسم:

ـ بكل تأكيد لا.. كنت تقول؟

ـ إنها توقفني عند حدي.. أتعرف كولمان أنها سكرتيرتي في العمل؟

بدا الاهتمام على كولمان: «لا، لم أكن أعرف، أهذا تعرفان بعضكما بعضاً جيداً؟».

قال أوسكار، وقد طغى عليه الغموض فجأة: «نعم هذا هو السبب».

بعد نقاش طويل قال أوسكار:

ـ أشعر بالعطش. أترغبين في أخذ دور المضيفة مارسيلا؟ استخدمي مطبخي.

عندما وقفت، ابتسم بإثارة: «تظاهري بأنك في بيتك».

قالت مارسيلا بحدة: «البيت حيث القلب و...»

ارتدت إلى حيث لا يستطيع أوسكار رؤية وجهها وهي تكذب:

ـ وقلبي ليس هنا.

قال كولمان: «لديها صديق أوسكار، وصلت متأخراً يا صاحبي».

أقفلت الباب الجرار نحو المطبخ لئلا تسمع رد أوسكار..

بعدما احتسوا الشاي جمعت الآنية الفارغة ثم أعادتها على العربة إلى المطبخ وبدأت بتنظيفها.

قال كولمان إن عليه الذهاب.. ومد رأسه من باب المطبخ:

ـ وداعاً مارسيلا.. أراك في التمرين القادم.

رافقه أوسكار إلى الباب، ثم عاد ليستند إلى باب المطبخ.

ـ كما في الأيام الغابرة. لن يصدق أحد لو قلنا له إن زواجنا تحطم..

قالت مارسيلا وهي تحاول إيقافه عند حده:

ـ أزورك على أساس أنني مخرجة فنية.

ـ للعمل فقط؟

ـ بالضبط.

ـ اتركي هذه، وتعالي لتجلسي.. لست مضطرة للذهاب الآن فلن يمنعك الفندق من الدخول لو تأخرت.

قادها إلى غرفة الجلوس الدافئة، بسبب التدفئة المركزية.. استقرت متنهدة في مقعد ذي مسندين أما هو فجلس قبالتها.

ـ لديك بيت جميل أوسكار..

ـ هذا ليس بيتاً بل مكان للسكن.

ـ وكيف وجدت السكن في «الميدلاند»؟

ـ إن كنت تقصدين المكتب فقد كان عملي مزدهراً.. هناك الكثير من العمران في تلك المناطق.. اكتسبت خبرة لا تقدّر بثمن.. ولكني اشتقت إلى المنطقة الشمالية.. اشتقت إلى تلالها وهضابها، اشتقت إليها فقررت العودة.

نظر إلى الخارج نحو الظلمة، وعرف أنه لم يسدل الستائر، فوقف

يبدلها ثم عاد ليجلس.

ـ اشتقت إلى الربيع والصيف، وإلى الخروج إلى المراعي مرة أخرى.

ـ أظن أن المراعي في الشتاء جميلة كحالها في الصيف.. تكون أكثر وحشية وانعزالاً وأشدّ غضباً.. أتفهم قصدي؟.

كان يرقبها عن كثب:

ـ ربما.. هل صحبك ستين إلى المراعي؟

ـ أجل.. بضع مرات.

ساد صمت طويل قطعه أوسكار بقوله:

ـ أتذكرين الفندق الذي أمضينا فيه شهر عسلنا؟ كان أعلى فندق في انكلترا، كان بعيداً أميالاً وأميالاً عن أقرب مكان.. أتذكرين السيارة التي استعرتها، والأميال التي قطعناها؟.

هزت رأسها فأردف وعيناه في عينيها:

ـ إن حب السهول شيء مشترك بيننا.

ـ والموسيقى.

ـ أجل.. الموسيقى.. أظننت أن ذلك كاف ليدوم زواجنا؟

أغمضت عينيها: «كان الرابط مفقوداً، الرابط الذي يعطي الزواج قوة.. الحب».

وقف ليشغل التسجيل:

ـ إنها الموسيقى المفضلة لديك.

راحا يصغيان فسبحت في الزمن، وعادت الفتاة الصغيرة الحالمة التي شعرت بأنها في حلم، حلم من الماضي عندما كان أوسكار حقاً زوجاً محباً يملك لبها وفكرها.

انتهت الموسيقى، وأصبح الحلم لا لون له أو طعم، وتلاشى مع الظلام.. كان هنا، ظهره إليها، ينزع التسجيل ويضعه بعيداً.. إنه هنا. ولكنه لم يعد جزءاً منها، إنهما الآن منفصلان، منقسمان ومبتعدان إلى الأبد..

ـ كيف حال ماريون؟

ضاع السؤال في الصمت، وكأنه كرة انطلقت بين غرباء..

جلس مجدداً، وأجاب: «مشرقة تستمتع بثروتها».

ـ وابنها.

ابتسم أوسكار بمحبة: «إنه ولد رائع، حتى أرضيه صنعت له نموذجاً.. أترغبين في مشاهدته إنه في صندوق سيارتي».

قبل أن ترد، خرج من الغرفة.

قريباً تصبح ماريون لاينود ماريون بلووم، وسرعان ما يصبح لرويرت والد جديد.

عاد أوسكار، حاملاً بعناية أنموذجاً لمنزل كبير.. منزله العتيد.

ـ إنه صورة عن المنزل.

مالت إلى الأمام، تظهر الاهتمام:

ـ الأبواب تتحرك، والنوافذ تنفتح، أليس كذلك؟ وكأنه دمية متحركة.

ـ وهذا ما سحر رويرت. إننا نصنع النماذج لنعرف أين الخطأ.

قالت: «لكنني لا أفهم كيف يعرف المهندس من أين يبدأ عندما يصمم بناء».

ـ إنه سؤال غريب تطرحه امرأة متزوجة من مهندس! حسناً، فلنبدأ الدرس الأول.. أولاً نضع الكثير من الرسومات البيانية، ثم نعيد ترتيبها، وإدارتها.. ثم نرميها، ونبدأ من جديد. بعد استشارة مختلف التقنيين، نجد المزيد من الأفكار، حتى نصل أخيراً إلى الفكرة النهائية التي قد تحل كل المشاكل.. ثم نتحدث إلى الزبون عارضين عليه تصاميم عدة ليختار منها.. علينا ألا ننسى الزبون.. يجب أن ننصحه، أو ننصحها، عند كل خطوة تقريباً.

قاطعته مارسيلا: «ألهذا ترى زبونتك كثيراً؟».

ابتسم: «إنه سؤال إيحائي يا امرأة. لست أبله حتى لا أفهم»

بدت محرجة فلم تقل شيئاً.

أضاف: «الرد هو أجل ولا.. الخط الفاصل بين الواجب والمرح بالنسبة لماريون، دقيق جداً.. إنها امرأة جميلة».

انفجرت في وجهه: «لماذا لا تطلقني وتتزوجها؟»

نظر أوسكار إليها.. فأشاحت بوجهها عنه.

قال بلهجة المؤنب، كأستاذ يلفت نظر تلميذه إلى موضوع الكلام:

ـ في أول مراحل التخطيط أفكر وأناقش، أرسم وأخربش بسرعة. وقد تذكرين في الماضي كيف كان يعجّ المنزل بالرسومات.

هزت رأسها: «حتى في غرفة النوم».

ـ ذلك كان غلطة.

ـ ولم يكن لديك أقلام كافية أيضاً.. كنت تستخدم ما تقع عليه عيناك.

ـ وما زلت على عادتي. إن الأقلام نقطة ضعف كل مهندس..

راح يشرح لها مراحل التخطيط والرسوم.

كان يتكلم بلطف، تحركت في مكانها قلقة فهي تعرف أن الجدار بينهما سيرتفع أكثر فأكثر مع الأيام ويتحول إلى جزء منهما إلى الأبد.

ـ من الغريب أن أكلمك هكذا الآن، وقد تأخر الوقت؟ لو فعلت هذا منذ سنوات، لربما اختلفت الأمور بيننا.. ولربما فهمت عملي بدل أن تكرهيه، ولما ثبت أن هذا هو العائق أمام سعادتنا التي كانت موجودة فعلاً.

تمتمت بصوت لا نكهة فيه.

ـ كان هناك ستين.

تنهد: «كان دائماً ستين وما زال».

مال إلى الأمام يطبق يديه معاً:

ـ الزواج يأتي ويذهب، أما ستين فيبقى إلى الأبد.

نظرت إلى ساعتها، وصاحت مستغربة:

ـ إنه منتصف الليل تقريباً! يجب أن أذهب!

وجد لها معطفها فارتدته.. عند الباب، أمسك يدها، يدها اليسرى،

ونظر إلى خاتم الزواج الذي أصبح بلا معنى حالياً. راح يتلاعب به، وتساءلت عما إذا كان يريد انتزاعه.. لكنه نظر إليها:

ـ أمر ساخر.. أن أكون القريب الأقرب؟

انتزعت يدها: «أجل.. إنما لا تنزعج من هذا فلن يبقى هنا طويلاً».

ضاقت عيناه قليلاً.. فقالت: تصبح على خير.

ولكنه لم يرد. ابتعدت عنه قاصدة سيارتها التي بانتظارها في الظلام.

* * *

٦ ـ وردة ميتة

في اليوم التالي بعدما تناولت العشاء في الفندق توجهت لتزور السيدة آميني دويل وهناك استقبلتها شقيقتها ايفيل بحرارة.

نزل ستين من الطابق العلوي فقال إنه كان يراجع دوره في المسرحية.. عانقها مظهراً تملكه أمام أقاربه فأشرقت المرأتان بالسعادة، وصفقتا استحساناً، وكأنهم يشهدون ممثلاً يؤدي دوره. تحركت آميني بسعادة حول مارسيلا، ترتب لها وسائد الأريكة.

ـ اجلسي هنا معه.

قالت الأم مفتخرة بابنها: «ستين إنسان واضح عكس زوجك الغامض.. هكذا ربيته، ليكون صادقاً لا يخشى أحداً».

غطت مارسيلا فمها لتخفي ابتسامة.. ستين لا يخاف؟ هناك أمر واحد عن ستين لو ذكرته لارتاعت الأم وهو أن ستين سبب تحطيم زواجها.. نظرت إليه فرأت تفاهته. خداه الشاحبان منوردان بالأحمر بسبب جلوسها قربه أما عيناه، فتخلوان من اللياقة وهما مليئتان بالغرور. تساءلت مجدداً كيف حدث أن أبعد أوسكار عنها.

ثم تذكرت أنه لم يتركها وشأنها قط.. تذكر أنه دأب على الاتصال بها وزيارتها، والظهور على عتبة دارها، في أدق اللحظات الحميمة التي كانت تعيشها مع أوسكار.

تذكرت أن إصراره، رفضه الاستسلام هو ما سبب الضرر النهائي.. هو الذي وجه الضربة النهائية المميتة، التي أدت للانفصال.

أمسك ستين يد مارسيلا وقال:

ـ علمت بوجود شقة فارغة، ليست بعيدة من هنا. إنها شقة في الطابق العلوي، مفروشة تقريباً، أما الغرف السفلى فمقطوعة بألواح خشبية.

قالت مارسيلا بلهفة: «متى نستطيع أن نراها؟».

ـ يجب أن أحدّد موعداً.

في اليوم التالي، اتصل بها ستين في العمل قائلاً:

ـ نستطيع الذهاب لرؤية الشقة هذه الليلة.. أزورك في السادسة والنصف، وبعد ذلك مارسيلا أود دعوتك للعشاء في فندقك.

شعرت بأن في المكتب اضطراباً ما.. لكنها تغاضت عنه وركزت على كلام ستين الذي كان يقول:

ـ في المرة الأخيرة التي حاولت فيها دعوتك، منعني زوجك.

ردت مارسيلا: «شكراً ستين، أحب تناول العشاء برفقتك. أراك في الفندق في السادسة والنصف، وداعاً الآن».

عندما التفتت رأت زوجها واقفاً وراءها وبدا في مزاج سيء. قال بحدة:

ـ حينما تنتهي مناقشة شؤونك الخاصة في أوقات العمل أود أن تنتبهي إليّ.

رفعت الفتيات الأخريات رؤوسهن حابسات الأنفاس مترقبات شجاراً زوجياً. ولكن أملهن خاب، فقد أخفضت مارسيلا رأسها إلى الجهاز وتمتمت: «آسفة».

إنها على أي حال سكرتيرته، وهو الآن أحد مديري المؤسسة.

ـ لدي اجتماع، أريد منك المجيء لتسجيل الملاحظات.

ـ متى ستذهب؟

ـ الآن، ارتدي معطفك واخرجي إلى السيارة.. احملي معك دفتر الملاحظات والقلم.

عندما كان يقود سيارته في المدينة، قال لها: «نحن ذاهبان إلى حيث

أنقاض منزلك. لقد أوكل إليّ المشروع هناك، وأعتقد أنك تريدني سادياً لأنني قررت اصطحابك بعدما حدث».

هزت كتفيها: «لا أتوقع شيئاً آخر منك إذ لم تعاملني قطّ بلين».

ـ ما كان عليك الزواج بي ما دمت تطلبين الزواج، فأنا لا أغلف كلماتي وأعمالي بالقطن أو الحرير.

قالت بحدة: «عرفت ذلك بالتجربة المرة».

قالت بعد صمت قصير: «معروض عليّ شقة».

ـ أين؟

ـ ليس ببعيد عن مكان سكن ستين وأمه الحالي.

ـ كم الإيجار؟

ـ لا أدري.. ولكنني لن أخبرك حتى وإن عرفت، فما ذلك بشأن من شؤونك.

ـ أوافقك الرأي. ولا شك أن ما يزيد من جاذبيتها هو قربها من ستين.. كيف هو المكان؟ عصري؟

ـ لا.. قديم، سآخذ الطابق العلوي الذي سأراه الليلة مع ستين.

ـ قبل العشاء معه.. سمعت نقاشكما على الهاتف.

ـ وما العيب في العشاء معه؟ ألا تتعشى أنت مع الزبونة الجميلة؟

ابتسم وهو يراقب الطريق، وقال: «علاقتنا تتعدى العشاء في هذه الأيام».

ـ ماذا تعني بهذا؟

ظلّ صامتاً.. فأضافت تشد قبضتيها من فرط الغيرة.

ـ إن كنت تحاول إثارة غيرتي فقد فشلت.

ـ فشلت؟.. ها قد وصلنا.

أبعد السيارة عن الطريق، وسار بها بضع ياردات على الوحل الذي كان يوماً حديقة المنزل الأمامية.

ـ هيا مارسيلا.. اخرجي من السيارة.

نظرت بهلع إلى حذائها.

ـ لكن.. الوحل! سيتسخ حذائي.

ـ لدي حذاءان مطاطيان في مؤخرة سيارتي، جربيها.. قد تناسبك.

دسّ الحذاء المطاطي ثم حمل إليها الآخر.

ـ هيا سأنزع حذاءك.

رفع لها قدمها فقالت محتجة: «سأقوم أنا بنزعه».

لكنه تجاهلها. دس لها الحذاء.. ثم أمسك يدها يساعدها على الوقوف:

ـ اخرجي وانظري إن كانت تناسبك.

ـ إنها كبيرة قليلاً.. لكنها مناسبة.

ـ جيد.. ألديك دفتر الملاحظات؟ مراقبو العمل هناك.

اقتادها وهو ما يزال ممسكاً يدها فوصلا قرب شاحنة حيث كان رجل ما يتحدث إلى سائقها.. ما إن شاهده الرجل حتى رفع يده محيياً وتقدم إليه. قدم أوسكار له مارسيلا قائلاً:

ـ هذه زوجتي.

رفع الرجل حاجبيه ثم قال إنه مسرور بلقائها، فأضاف أوسكار:

ـ إنها سكرتيرتي أيضاً.

هز المراقب رأسه وعيناه ثابتتان على أيديهما المتشابكة.. ثم أشار إلى رجل يجلس في سيارته:

ـ مدير المشروع هناك.

خرج الرجل الذي أشار إليه مرتدياً حذاءاً مطاطياً ودنا من أوسكار الذي عرّف عن مارسيلا على أنها زوجته.

وصل عدد من القاطنات إلى الموقع، ترجل السائقون منها وانضموا إليهم.

قال مراقب العمل: «هؤلاء ممثلون عن جميع المتعهدين الثانويين وقد جاؤوا للتداول».

ـ دوني ملاحظات عن حديثنا ونقاشنا مارسيلا . . فما سنقرره هنا يعتبر مسودة .

طال النقاش الذي كان يجري بسرعة بحيث عجزت مارسيلا عن متابعة ما يقولون .

عندما ظنت أن الرجال لن يتوقفوا عن الكلام، قال أوسكار :

ـ حسناً مارسيلا . . لن نحتاجك هذا الصباح . . عودي إلى سيارتي وانتظريني فيها .

ولكنها وضعت دفترها وقلمها في جيبها وأخذت تتجول . . توجهت إلى المكان الذي كان عليه بيتها . وتوقفت لحظات، وكأنها تزور قبر حبيب لها . . ازدادت كثافة الوحل وهي تسير فراحت تمشي بصعوبة حتى وقفت في المكان الذي كان يوماً الحديقة . . حديقتها . ما زالت شجرة الورد قائمة في مكانها وقد نجت بأعجوبة من الجرافات . . وما زالت أزهارها البيضاء عالقة ولكن ملوثة بالوحل . . وقطفت وردة وقرّبتها إلى أنفها . . فلم تجد لها رائحة . حملتها بين يديها وقررت أن تأخذها معها وتجففها، ثم تضع وريقاتها بين أوراق كتاب .

توجهت بحذر إلى قطع من الردم لم تجرفها الجرافات، استرعى انتباهها للحظة صيحة أحد سائقي الشاحنات، فتعثرت بحجر، واتكيت على وجهها في الوحل .

شهقت . . وفيما هي تقاوم بيديها وقدميها لتستقيم انزلقت مجدداً، ووقعت على وجهها .

صاح أحدهم مجدداً وهذا ما أثار انتباه أوسكار الذي توجه إليها .

هرع إليها ليلتقطها . ظنت أنه سيغضب، ولكنه كان يضحك :

ـ يا له من منظر! ويا لها من ورطة .

أوقفها على قدميها، بمسك كتفيها ليثبتها . . ووقفت، كطفلة تغيبت عن المدرسة لتلعب فوقعت في بركة وحل .

نادى أوسكار الرجال :

ـ كفى اليوم . . أراكم مجدداً بعد أسبوعين . يجب أن أحل زوجتي وأنظفها .

تعالت صيحات الضحك التي امتزجت بالشفقة، وهو يحملها بين ذراعيه إلى السيارة . عندما وضعها في المقعد، شاهد الوردة مليئة بالوحل . . فبدأ يسأل :

ـ ما هذا بحق الله . . ؟

ـ وردة . . إنها ميتة . . ولكنني سآخذها . وجدتها في حديقتنا . . حديقتي .

ـ يبدو أن وراء كلماتك مغزى .

ـ سأحتفظ بها مجففة .

ـ يا لك من عاطفية؟ تجدين وردة ميتة، على شجيرة ميتة مغطاة بالوحل، ثم تقولين إنك ستحتفظين بها إلى الأبد .

ـ عرفت أنك لن تفهم إذ لم تفهمني يوماً .

نظرت ببؤس من النافذة :

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ إلى الفندق لتخلعي ملابسك وتستحمي .

نظر إليها بسرعة : «وجهك ملطخ بالوحل وشعرك أيضاً» .

أوقف السيارة في موقف الفندق .

ـ ألديك مفتاح الغرفة؟ أعطني إياه .

أعطته المفتاح على مضض ثم التقطت حذاءها .

ـ بمقدوري تدبر أمر نفسي . لا داعي إلى أن ترافقني .

خرج من السيارة وكأنها لم تتكلم .

ـ فلنأمل ألا نجد في المدخل أحداً .

لم يكن هناك أحد فتسللا كالمتآمرين إلى الطابق العلوي . وعندما وصلا فتح لها باب الغرفة، فدخلت رأساً إلى المغسلة، ملأ كأساً بالماء لتضع الوردة فيها، تتطلع إليها لحظات وكأنها تأمل أن تعود إلى الحياة مجدداً . .

كان أوسكار يراقبها بحنان غريب، وسألها: «ألن تستحمي؟».

- ليس لدي الوقت.. عليّ العودة إلى العمل..

- لا أظنك نظراً للظروف الراهنة بحاجة إلى القلق. أنا أعطيك إذناً بالتأخير كوني أحد رؤساء الشركة.

- شكراً على أي حال، لكنني سأغتسل فقط.

نظرت إليه متسائلة عما سيفعل أثناء تبديلها الملابس... لاحظ قلقها فضحك.

- هيا.. تحركي، لا تهتمي.. أنا زوجك.

بعد الاغتسال، غيرت ملابسها ومشطت شعرها، ثم شذبت الحصلات المتشابكة ووضعت الماكياج. أخيراً قالت له: «أنا جاهزة».

وضع المجلة جانباً، ونظر إليها بلا تعليق..

قال في أثناء العودة إلى المكتب:

- أرسلي هذه الثياب إلى التنظيف وضعي الحساب على المؤسسة، فما أصابك وقع وقت العمل.

- شكراً.. لكنني كنت مخطئة في تحولي بعيداً.

- بحثاً عن الماضي؟

- ربما.

- لا أفهم لماذا لا تتركين الماضي يسلام.

- لا تقلق.. سأتركه. الماضي بدءاً من هذه اللحظة مات عندي.

- ولن تسمحي للتاريخ بأن يعيد نفسه؟

- أبداً.. هل هذه الملاحظات التي دونتها مهمة أوسكار؟

- أجل.. إنها مهمة.. سأطلب طبع عدد من النسخات، وفي الاجتماع القادم، سأراجعها مع المتعهدين، لأتأكد أن المشاكل التي أثيرت فيها قد عولجت. يجب أن تدوّن جميع التعليمات، فهي تؤثر في كلفة العمل. لكل ما يحدث في الموقع ثمنه.. وعلى المهندس أن يجيب عن أسئلة كثيرة وسريعة.

نظرت إليه وكأنها تعتذر عن عدم تفهمها لعمله في الماضي:

- لم أكن أعرف كم هو معقد عمل المهندس. و.. كم يتطلب تفانياً تاماً.

رد بلهجة غريبة: «أليس أمراً مؤسفاً؟ أن تدركي ذلك متأخراً ثلاث سنوات؟»

* * *

ما إن شاهدت مارسيلا الشقة حتى قررت قبولها.. المنزل قديم، والديكور بحاجة إلى اهتمام، فغرفة النوم التي حوّلت إلى مطبخ كانت صغيرة ومغلقة ولكنها معتادة على مثل هذه العوائق، وكان الأثاث عتيقاً، ولكنه مريح بشكل معقول.. وفي غرفة النوم سرير مزدوج مخصص لزوجين لا لامرأة تعيش بمفردها.

علق ستين: «إنه على الأقل مكان للسكن كما أن إيجاره معقول».

تركا الشقة، وقال ستين إنه سيتصل بصاحبة المنزل ليخبرها أن مارسيلا قررت استئجار المسكن..

عندما كانت جالسة معه في قاعة الطعام في الفندق أحست بتغيير يعتريه. وكأنه جرادة تتحوّل إلى فراشة، فمن بائع في محل متواضع إلى متنفذ متكبر، يأمر الساقي الواقف باحترام أن ينفذ ما يريد.. تصرف وكأنه على المسرح أمام المشاهدين.. وهذا دور جديد بالنسبة له، لذلك صعب عليه أن يؤديه ببراعة، لكن، يجب أن يؤديه، حتى تنتهي المسرحية.

أعطى أوامره للنادل بتكبر ثم ابتسم راضياً وكأنه يهنىء نفسه على نجاحه في أداء الدور. ولكن كان ما جرى بالنسبة لمارسيلا التي تعرفه مثيراً للشفقة ومسلياً حتى، لكنها تجاوبت مع تمثيله وكأنها بطلة أمامه.

اقترحت مارسيلا أن يجلسا في الصالون، حيث يستطيعان تبادل أطراف الأحاديث ولكنه قال:

- ما رأيك بغرفتك؟ لم أرها حتى الآن، فعندما أتيت سابقاً كان

أوسكار فيها.

لم ترَ مارسيلا ما يحول دون اصطحابه إلى غرفتها.. فهي تعرفه معرفة تجعلها غير خائفة من تصرفاته.

ولكنها كانت مخطئة ففي شخصيته جانب لا تعرفه أبداً. وعلى ما يبدو أن جو الفندق الأرستقراطي قد أثر فيه. أضاء النور فوق المرآة في الحمام، وملس شعره الذهبي ثم سوّى ربطة عنقه.. بدا أنه يشعر بأنه في بيته.

واجه مارسيلا وفي عينيه نظرة غرام مؤكدة.. لم يقل شيئاً، بل وقف أمامها. ثم أمسك كتفيها وجذبها إليه معانقاً ولكنه ما لبث أن تراجع وكأنما يريد تقويم تأثيره فيها. كانت ردة فعلها الرئيسية الدهشة، وبما أنها لم تدفعه عنها، كرر التجربة، فالتفت ذراعاه حولها بارتياك، ثم حاول إظهار قوته الرجولية فدفعها إلى السرير. عندما أدركت ما كان يحاول أن يفعل قالت:

ـ لا.. ستين.. لا.. لا تكن سخيفاً!

شدها حتى أصبحا مستلقيين جنباً إلى جنب: «لست سخيفاً».

ـ لا أستطيع.. لست..

حاول معانقتها مجدداً.. فقاومته ولكن مقاومتها قوّت عزيمته. إنه ستين جديد، لم تحلم من قبل أنه موجود، ولكنها تكره هذا الشخص الجديد.. جذبت نفسها بعيداً عنه. كان هناك نوع من اليأس في تصرفاته، وكأنه يظن أن عليه ألا يسمح لها بأن تحبط رجولته بعد محاربته الصعاب ليطلقها إلى السطح.

ولكن حكم على آماله، ولمحرر شخصيته بالهلاك..

كان هناك قرع على الباب. نظرت مارسيلا برعب إلى ستين.. لا يمكن أن يكون أوسكار! انتزعت نفسها من قبضة ستين، وملست شعرها ولكنه كان أشعث إلى درجة تعجز معها عن تسويته. إن حالة شعرها ستخبر الطارق بكل ما يريد معرفته.

عاد الطرق مجدداً، فأسرعت تفتح الباب، فقد يكون أحد موظفي الفندق.. ما إن شاهد ستين أوسكار يدخل حتى امتقع وجهه دلالة شعوره

بالذنب. نقل أوسكار نظره منه إلى مارسيلا فلاحظ ارتباكها ثم قال بصوت ملؤه السخرية:

ـ لا تقولا إنني جئت في لحظة غير مناسبة؟

وقف ستين، يقول بصوت حاد أجش وفي عينيه غضب بارق:

ـ اسمع يا رجل.. لا يحق لك اقتحام الغرفة هكذا، كما لا يحق لك زجّ أنفك في حياة مارسيلا الخاصة.

لقد أراد أن يخلص المسرح من الشخصية غير المرغوبة، ولكنه ارتكب بقوله ذاك خطأ جسيماً إذ استولت الشخصية غير المرغوبة فيها على الدور الرئيسي بكفاءة وجعلت من ستين دويل ممثلاً لا دور له في حبكة المسرحية.

ضاقت عينا أوسكار، وقال بحنق:

ـ حق.. قلت؟ لي الحق في هذه الغرفة بمقدار ما لأي زوج الحق في غرفة زوجته.. أنا لم أطلقها ولدي حتى وقوع الطلاق الحق كل الحق أن أفعل ما يحلو لي بها ومعها.. ولي الحق كذلك في مطالبتك بالرحيل. ولو أردت، لرميتك إلى الخارج.. ولكنني سيد مهذب.. والآن أطلب منك فقط أن تخرج.

انهار ستين فوق السرير، وعاد ستين ذلك البائع المتواضع في محل بيع الملابس.. وانتهت المسرحية، لقد كانت مسرحية فاشلة.

تابع أوسكار كلامه له، وهو يشرف عليه.

ـ أنا أكبح نفسي كثيراً في التعامل مع من كان السبب في تحطيم زواجنا.

حاول ستين أن يحتج فقاطعه أوسكار:

ـ كنت العامل المحرك الدائم، الشخص الذي أزعج وأقلق وتدخل في حياتنا الزوجية تدخلاً جعل من استمرار حياتنا الزوجية أمراً مستحيلاً.

التفت إلى مارسيلا: «لا أظن أن زوجتي قد أخبرتك بهذا ولا شك أنها لاذت بالصمت ولم تخبرك بأنك المسبب لشجارنا الدائم».

قال ستين: «لكنني لم أحطم زواجكما.. بل أنت من حطمه. ألست من تخلى عنها؟»

قال أوسكار لمارسيلا: «أخبريه السبب».

ـ أوسكار.. أرجوك.

تجاهل توسلها: «السبب أنت.. أنت فقط. لذا أكرر، أخرج من هنا!»

صاحت مارسيلا: «سأخرج معه.. لن تطرده من غرفتي هكذا!»

لم تستطع أن تقول له إنها تحاول الهرب منه ومما سيقوله لها في ما لو بقيت معه..

سألها أوسكار: «غرفتك؟ من يدفع أجرتها؟»

ـ هذا هو المسك الذي تواجهني به دائماً. كان ستين طيباً معي بطرق عديدة.. وأنا..

كان خوفها من أوسكار يتصاعد، فأمسكت معطفها وركضت لتنضم إلى ستين ولكن يد أوسكار امتدت وأمسكت ذراعها بشدة لتعيدها إلى الوراء:

ـ ستبقين هنا.

ـ لن تجبرني..

ـ حقاً؟!

أمسك بكلتا ذراعيها، ووضعهما خلفها ماسكاً معصميها بيد واحدة كقيد حديدي. تألمت، وتدفقت الدموع.. أما ستين فخرج لا يلوي على شيء. عندها تركها أوسكار.

ـ إذن جئت في لحظة غير مناسبة؟ أفسدت عليكما مشهد الغرام.

جلست على السرير متهالكة، تمسك رأسها لأنها تعرف أنه لن يصدقها حتى وإن قالت الحقيقة.

ـ بحق الله.. كان لسنوات جرح مفتوح بالنسبة لي.. والآن أخرجته من صدري.. وقلت له ما فعل بنا بالضبط، قد لا يندمل الجرح ولكن عملية تجميل جراحية ستزيله..

توقف قليلاً ثم ابتسم بخبث: «قد تكون عملية التجميل بحب امرأة

أخرى!».

وقف أمامها وهي منهارة، فتمتمت:

ـ لماذا جئت؟ إنها المرة الثانية التي تأتي بها إلى هنا، وأنت عالم بأن أحدهم معي.. أولاً مايكل والآن ستين. أتمنى لو تتوقف عن التطفل، نحن متفصلان.. وتنسى مدى طيبة ستين الذي ساعدني في الأيام الصعبة..

ـ طيب معك؟ بإبعادك عني؟ بدفعي خارج حياتك؟ أتسمين ما يفعله طيبة؟ يا الله..! لم أدرك حتى مدى عدم انسجامنا. إذن، تريدينني أن أتوقف عن التطفل، كما تقولين؟ حسناً سأذهب.. إنما إياك أن تأتي إليّ راكضة عندما تقعين في المتاعب.. من الآن فصاعداً، أنا مجرد رجل آخر.. لا علاقة لي معك إلا بالاسم فقط.

توجّه إلى الباب.

خوفاً من التصميم في صوته، وعلماً بأنه يعني ما يقول، هرعت إليه.

ـ أوسكار! لا تذهب.. أعني.. لماذا جئت حقاً؟

عرفت أن كلماتها نوع من الاعتذار، وردة فعل على الاتهامات التي أطلقتها بأنه ما جاء إلا ليتطفل.. وبدا أنه قبل الاعتذار، لأنه عاد إلى الغرفة وأغلق الباب مجدداً، وهو يقول:

ـ هذا أفضل لأنني كنت أعني ما أقول فعلاً.. جئت أسألك إن كنت بحاجة إلى أثاث لشقتك، ولأقول لك إنني مستعد لمرافقتك إلى حيث المخزن لتنقلي ما تشائين.

ـ هذا.. لطف منك، أشكرك لأنك تفكّر فيّ.

ـ إذن لي بعض الفضائل؟ تذهلينني حقاً! حسناً.. هل تحتاجين شيئاً للشقة؟

ـ أجل سأحتاج.. إنها مفروشة ولكن عليّ أن أجهز نفسي ببعض الأغراض.

ـ سأتصل بشركة النقل، وأحدد موعداً لنذهب إلى هناك. أظنهم بحاجة إلى علم مسبق حتى يهيئوا لنا أغراضنا.

رفعت بصرها إليه. . لقد قال: أغراضنا. . لكن وجهه كان فارغاً كشاطىء في الشتاء.

تحرك ليخرج. . فقالت: «أوسكار؟»

وقف مستمراً رافعاً حاجبيه: «نعم؟»

ـ أشكر لك ما فعلته من أجلي كما أشكرك لأنك كنت طيباً معي بطرق أخرى. أنا. . أريد منك أن تعرف أن كل هذا لن يمر بدون أن أشعر بالامتنان نحوك.

لم تستطع رفع عينيها إليه. فعاد إليها:

ـ إذن، كنت طيباً معك؟ شكراً. . فقولك يضعني وصديقك ستين في المستوى نفسه فهو كان أيضاً «طيباً معك»، وكان صديقاً. لن أكون مثله لك أبداً. . يا زوجتي العزيزة. . حتى تحكم المحكمة بطلاقنا. .

* * *

٧ ـ الزوجة المهجورة

حينما استدعى أوسكار مارسيلا في الصباح اليوم التالي إلى غرفته، ليملي عليها رسائله، ذكرته بتمارين المسرحية ذلك المساء، فقال لها بحدة:

ـ لم أنسَ. . سأكون خلف المسرح أحاول البدء بالمناظر، قد تسمعون بعض الضجيج الذي قد يزعج الفرقة.

قالت إن عليهم الاعتياد على الضجة، فأضاف:

ـ اتصلت بالمخزن وقد أخبروني أن بإمكاننا الذهاب متى شئنا في الأيام التالية. متى تخططين للانتقال؟

ـ في أسرع وقت ممكن. . أخبرت الفندق أنني سأترك الغرفة في غضون أسبوع.

ـ إن انتقلت يوم السبت أساعدك.

ـ لقد قال ستين. .

أوقفتها نظرة عينيه عن المتابعة، فقالت:

ـ سأكون شاكرة لك.

ابتسم للرسالة التي يحملها. . فلقد سجّل نقطة.

وسألت: «أمن الملائم نقل الأثاث بعد العمل في الغد؟»

هز رأسه: «يمكننا نقله إلى شقتي إذا شئت».

نظر إليها ساخراً: «لا تقولي لي قال ستين إنه يستطيع وضعه في منزل خالته».

ـ حسناً. . لقد قال هذا. . ولكنني أفضل أن أتركه عندك.

ـ لا تقولي هذا.. إن لثغتك الطفولية بي تلمس شغاف قلبي.

نظرت إليه: «ليست المسألة مسألة ثقة. الأمر كله أن الأثاث أثاثي وأثاثك».

عبس: «جئت للعمل، فلنعمل إذن».

وصل أوسكار إلى القاعة في مزاج سرح. خلع معطفه ورماه على كرسي، ثم قال للآخرين المتحلقين حوله:

ـ لاحظوا ان بمقدور المهندس استعمال أقسى ما في مخيلته وذكائه.. كولمان؟ تعال إلى هنا، هل لديك المعدات والطلاء؟ حملت جزءاً منها معي ولكنها غير كافية.

ظهر وجه دوللي من فجوة على المسرح، فلمّا شاهدت أوسكار فتحت الستائر، وهرعت إليه ترمي نفسها إلى القاعة. وقفت لاهثة أمامه، تنظر إلى وجهه: «أوسكار!»

قال مبتسماً: «مرحباً.. إلام تسعين؟.. وكأنني لا أعرف!»

ـ إلى عناق.. كالذي أعطيتنيه من قبل.

أطاعها متمتماً: «لو تطلب كل فتاة هذا..»

أطلقت صيحة حادة بعدما تركها.. نظر إلى مارسيلا، التي كانت تراقب ما يحدث.

قال: «لا أدري ما ستقول صديقتي لو رأتني أعانق فتاة أخرى، بهذه الطريقة».

عبست دوللي: «وهل لديك صديقة؟»

ـ لدي صديقة.. إنها أرملة ثرية أعمل على بناء منزل لها.

ـ وهل ستعيش فيه معها؟

ـ هذا ممكن دوللي الصغيرة.. من يعرف.

صاحت: «لن تفعل ذلك!»

ارتدت مارسيلا التي كادت كلمات دوللي تخرج من فمها.

أجاب أوسكار دوللي: «ومن يمنعني؟»

لفت دوللي ذراعيها حول عنقه: «سأكون أنا صديقتك».

ضحك مع الآخرين، ثم أبعد نفسه عنها بلطف:

ـ لا يجدي العرض نفعاً. على الرجل أن يلاحقك.. في أول الأمر على الأقل.

قالت دوللي وهي تعود إلى المسرح بغضب:

ـ لا أحتاج إلى دروس منك لأحصل على رجل.

ضحك الجميع، وتمتم أوسكار بمرح: «أخبريني أنا بهذا؟»

تبع سائر أفراد الفرقة البطلة إلى المسرح.

قال أوسكار بهدوء لمارسيلا: «أين بطلك الليلة؟ هل هجرك إلى امرأة أخرى؟»

قالت ببرود: «حنجرته ملتهبة، سيحل محله أحد الممثلين».

نادى أوسكار كولمان قائلاً إنه سيفتش عن العمل.

عندما انتهى التمرين، تفرق الجمع، وذهبت دوللي إلى أوسكار، لتتعلق بذراعه، وتقول له بصوت متزلف:

ـ هل تمانع صديقتك إن أوصلتني إلى المنزل؟

ضحك.. وتظاهر بالتفكير:

ـ حسناً الآن.. أتساءل إن كانت ستمانع.. ما رأيك مارسيلا؟ أتمانع صديقتي إن أوصلت دوللي؟

قالت مارسيلا بحدة: «يستحسن بك أن تتصل بها مستأذناً».

ارتدت معطفها، ووضعت وشاحاً حول عنقها ثم دست يديها في قفازها، واتجهت إلى الباب.

ـ مارسيلا؟

التفتت إلى أوسكار.

ـ هل سيارتك معك؟

ـ لا.. أرسلتها إلى الكاراج.. ثمة عطل في جهاز التحويل.

ـ أتودين أن أقلك؟

ـ لا شكراً. فلديك من تقلّه.

وأدارت ظهرها له، فقال بصوت هامس عذب:

ـ ولكنني أريدك أنت.

ارتدت إليه وفي عينيها الغضب، وفي قلبها عاصفة من الخفقان، لكنها كانت تعرف ما يعني.. ووجدته يبتسم..

قالت دوللي: ستقلّني أنا إلى المنزل أوسكار.. لا يمكنك أن تقل امرأتين.

ربت يدها: «وهل من قانون يمنع ذلك أيتها الشابة.. أستطيع أن أقلّ من أشاء إلى منزله. هل تظنين أنك ستحرمين من عناق توديعي؟ لا تقلقي. عادتي أن أعانق جميع النسوة اللواتي أقلّهن إلى منازلهن.. فحتار مارسيلا».

خرجت، ولكنه لحق بها شاداً دوللي معه.. ربط ذراعه بذراع مارسيلا ولكنها حاولت الخلاص. فامتدت يده تمسك يدها لئلا تستطيع الهرب..

قالت دوللي: «ألا ترى أنها لا تريد الإتيان معك؟»

قال: «بل ستأتي».

جاء الصوت الحاد في الليل: «من يراك يظن أن مارسيلا هي صديقتك لا تلك الأرملة الثرية».

ضحك عالياً: «أنت تمزحين».

فتح السيارة، وتمسكت دوللي بالمقعد الأمامي.. أما مارسيلا فصعدت إلى المقعد الخلفي، تجلس في الزاوية. سألته دوللي وهي تنظر إلى مارسيلا:

ـ ستوصلها أولاً؟

ابتسم وهو ينظر أمامه:

ـ بما أنك الأصغر سناً، عليك أن تأوي إلى فراشك باكراً. لذلك سأرافقك إلى المنزل أولاً دوللي.

ـ أنا.. صغيرة؟ أنا في الثامنة عشرة..

ضحك، لكنه لم يقل شيئاً حتى توقف أمام باب دارها. فمالت إليه استعداداً للعناق، لكنه ارتدّ ربما ليزيد من عذابها.

ـ لقد وعدتني أوسكار!

تمتم: «يا لك من فتاة!»

خرج من السيارة، ودار حولها ليفتح لها الباب.

ـ تعالي أيتها الشابة.. ليس الرجل بآمن معك؟

ضحكت دوللي تلوّح بمرح لهما، واختفت في الظلام. تابع السير بضع دقائق، ثم توقف.

ـ أعرف أنك غاضبة لأن دوللي اغتصبت مكانك في المقدمة.. هيا إذن.. انضمي إليّ.

وربت على المقعد أمامه.. فردت بشفتين جافتين:

ـ شكراً.. لا.. سأبقى في مكاني.

أطفأ المحرك ثم عقد ذراعيه:

ـ سنبقى هنا حتى تنفذي ما طلبت.

عرفت أنه يعني ما يقول، فكان أن فتحت الباب على كره واستوت إلى المقعد الأمامي.

بدل أن ينزلها أمام مدخل الفندق، دخل إلى موقف السيارات.. فتساءلت عن السبب.

عندما همّت بفتح الباب قائلة «شكراً لك» أوقفها.

ـ لحظة زوجتي الحبيبة.. تعرفين ما قلته لدوللي، عناق توديعي.

حاولت الخلاص منه: «لا تكن سخيفاً.. لم تكن تعني هذا!!»

ـ ومن قال ذلك؟

عدّل من دفع مقعده الذي أرجعه بعيداً عن المقود، ليمسكها بكتفيها ويديرها حتى أصبحت مستلقية على ذراعيه، ثم عانقها بشغف. عرفت أنه كاذب مزيف، حاولت التحرر منه، ولكن قوته أسرتها.

همس لها: «هل يعانقك ستين بهذه الطريقة؟ هل تتعلقين به كما تتعلقين بي، وكأنك على وشك الوقوع من فوق صخرة عالية وتشديني إلى الخلف؟».

قبل أن تتمكن من تخفيف قبضتها عنه، ضمها إليه مجدداً يشدها بعمق حتى بدأت تستجيب. . أصابت نشوة الذكرى عصبة من الضوء الباهر على سطح تفكيرها وكأنها شمس مشرقة فوق بحر غير مستقر. وذعرت مما كان يفعله بمشاعرها.

قاومت مجدداً. . فتركها سائلاً بصوت هامس:

ـ حسناً؟ أهي الليلة التي تطلبين مني فيها البقاء؟ لتتحرري بعد ذلك مني بالطلاق الذي تريدين؟

همست بصوت أجش: «لا. . لا. . على أسئلتك جميعها».

ـ حسناً. . إذن. . سنبقى على حالنا وقتاً غير معروف. . تعرفين شرطي، وحتى تفي به، لن يتغير شيء. . عمت مساء.

خرجت من السيارة بدون أن يعيقها، ثم انحنت تدق على زجاج النافذة. . فمد يده يفتحها سائلاً بشيء من الغضب، وكأن قدرته على ضبط أعصابه لم تدم إلا ثوانٍ.

ـ ماذا الآن؟

. أوسكار. . وعدتني باصطحابي إلى المخزن غداً.

ـ لم أنسَ. . والآن ارفعي يدك عن سيارتي واتركيني أذهب إلى منزلي.

ارتعش صوتها: «أوسكار، أنا آسفة».

إنها تريده وتتوق إليه، ولكن عليها أن تتركه يرحل.

رد عليها ببرود: «هل أنت آسفة حقاً؟»

وانطلق في الظلام.

في اليوم التالي، انتظرت مارسيلا أوسكار في بهو المؤسسة، كانت تنظر بلهفة إلى الدرج متسائلة عما إذا كان نسي عندما رأت مايكل الذي قال لها:

ـ مرحباً يا جميلة. . أتنتظرينني؟

ضحكت: «لا».

توقف، يمسح لحيته:

ـ هل أنت حرّة الليلة؟ أنا مدعو إلى حفلة ولكنني حتى الآن لم أجد

شريكة.

ارتفعت عيناها مجدداً لتراقبه أوسكار ينزل الدرج مرتدياً قفاز القيادة.

وقف أوسكار قرب مارسيلا، فنظر إليه مايكل بحذر ولكنه أضاف:

«أترغبين في مرافقتي؟»

نظرت مارسيلا إلى أوسكار الذي بدا متسلياً بسبب الطريقة التي يسعى بها كلاهما إلى موافقته. سأل: «ما هذا؟ أتدعوها إلى حفلة؟»

التفت إلى زوجته: «هيا. . لا تخيبي أمل الرجل. . وافقي».

ردت: «شكراً مايكل. . لكن مزاجي لا يسمح لي بحضور حفلة، آسفة».

تركهما مايكل، فقال أوسكار ساخراً:

ـ الآن خيبت أمل الرجل، لماذا لم تقبلي قبلة ترضيه، كتلك التي نفحتها على ستين؟ هل من عادتك رفع آمال رجل، ثم إهانته بقولك «آسفة؟»

ـ إن كنت تشير إلى ليلة أمس. .

قاطعها بحدة: «فلننس ليلة البارحة».

سألها: «أين سيارتك؟»

ـ في الفندق. . جئت صباحاً في الباص. . الواقع أنني أنقل الأغراض مباشرة إلى الشقة، لقد أذنت صاحبة المنزل بذلك.

هز رأسه ثم انطلقا. عندما وصلا أرشدهما أحدهم إلى موضع الأثاث. وما إن رأت الممتلكات التي دعتها يوماً مع أوسكار «بيت» لهما حتى أدركت أنها مثيرة للشفقة.

ارتدّ عنها تاركاً لها حرية الاختيار، وكأنه يتخلى بذلك عن ملكية شيء منها. طريقته في التمنع هي أكثر ما آلمها وكأنه يرفض الماضي. . الماضي الذي تشاطراه.

اختارت ما تريد ثم غادرا المكان المظلم البارد. بعد خروجهما شعرت بالراحة والحزن العميق معاً. . لقد شاهدت الماضي مجدداً وعمّ البؤس قلبها حتى كادت تبكي. .

ـ أين الشقة؟

أعطته العنوان.. وسرعان ما قاد السيارة إلى حيث كان المنزل الذي عرف أياماً أفضل من هذه بكثير..

ـ ألديك المفتاح؟

أخرجته من حقيبتها.

ـ تعالي إذن.. فلندخل هذه الأغراض. أنا على عجلة من أمري فلدي موعد هذا المساء.

لم تحتج إلى السؤال مع من.. مع ماريون بالتأكيد. لكنه تطوع بذكر المعلومات:

ـ إنه عيد ميلاد روبرت. سأساعد ماريون في إقامة حفلة له.

أحست وكأن حربة اخترقت جسدها والتوت.. وكادت تصرخ ألماً. ابن ماريون، حفلة، حياة عائلية، كالتي لم تكن لها يوماً.

ما إن حملا آخر غرض إلى الشقة حتى نظر أوسكار حوله.. بدا أن المنظر قد أجفل المهندس فيه.

ـ يا إلهي! أنت تختارين أماكن غريبة للعيش فيها! أعتقد أن جاذبيته الوحيدة هو قربه من ستين الحبيب.

دخل إلى غرفة النوم وهناك جرّب السرير المزدوج الذي انحنى تحت ثقله. وبعد ذلك توجّه إلى المطبخ.

ـ يا لحداثته!

سألته عاجزة: «وما الفرق بالنسبة لي؟ لقد اعتدت على هذه الأشياء كلها إذ لم أعرف حتى في طفولتي أن يكون لي بيت لائق.. ولن يكون لي أبداً».

ارتدت عنه لتخفض كتفيها.. فقال:

ـ ولمَ لا..؟ عليك إجبار ستين على توفير منزل لائق.

لم تستطع تحمل سخريته فارتمت على مقعد.

نظر أوسكار إلى ساعته: «يجب أن أذهب.. تعالي.. سأقلّك إلى

الفندق».

أسندت رأسها إلى ظهر المقعد، وأشاحت وجهها عنه:

ـ لا.. شكراً.. سأعود بالباص، اذهب إلى حفلتك وإلى صديقتك.

ران صمت قصير قطعه بقوله: «افعلي ما تريدين».

وتركها.

حمدت الله لأنه تركها في تلك اللحظة فلو مكث لحظة أخرى لشاهد دموعها تنهمر على وجنتيها.

في نهاية الأسبوع تركت مارسيلا الفندق وانتقلت إلى شقتها الباردة المشبعة برائحة العفن.

جاء ستين فيما بعد، وساعدها على الاستقرار، ثم رحل دون أن يكرّر ما فعله في الفندق.

صباح الاثنين، التقاها أوسكار وهي متوجهة إلى مكتب السيد مولدون. فسألها كيف وجدت منزلها الجديد، فقالت:

ـ على الأقل هو لي.. وقد ساعدني ستين على الاستقرار فيه.

ـ أجل.. هذا ما فكرت فيه، ولهذا لم أعرض مساعدتي.

ودخل إلى غرفته يغلق الباب على نفسه وعلى سخريته.

بعد أيام ذكرت هاربيت مارسيلا بحفل العشاء السنوي الذي تقيمه المؤسسة.

ـ هل سيرافقك ستين؟

هزت مارسيلا رأسها:

ـ أجل.. ومن سيرافق أوسكار؟

ـ يقول فرانك انه سيأتي برفقة ماريون.. مارسيلا، إلى أي مدى أوسكار متورط مع تلك المرأة؟

ـ وكيف لي أن أعرف؟ يبدو لي أنهما صديقان حميمان.. إنه يقوم بدور الأب للطفل الصغير.

نظرت إليها هاربيت نظرة مؤاسية ثم ربتت على كتف مارسيلا وقالت:

ـ لا تحطمي قلبك من أجله، فما من رجل يستحق ذلك.

* * *

قبل بضعة أيام على الحفلة قررت مارسيلا الخروج لشراء فستان جديد فأصرت هاربيت على مرافقتها.

جالتا مخازن البيع الكبيرة، حتى وجدتا فستاناً أرضى هاربيت ولكن مارسيلا لم تجده مناسباً لشخصيتها فأرادت رفضه.. كان الفستان أسود، عالي الخصر، أكمامه طويلة حتى المعصم، أما ياقته فمنخفضة بجرأة..

قالت هاربيت وهي تتأمل مارسيلا بإعجاب: «سيزيد عقد من الكهرمان في إبراز بشرتك البيضاء».

ـ لا فائدة هاربيت، لن أرتديه.

ـ بل عليك ذلك.. في الواقع، إن لم تشتريه دفعت أنا ثمنه وقدمته هدية لك.

في النهاية اشترته مارسيلا..

وعندما وصل ستين ليصحبها إلى حفل العشاء، ترجل من سيارته شاهقاً: «يا الله مارسيلا تبدين مذهلة».

وضعت معطفها حول جسمها وكأنما تعتذر عن قدرة الفستان على جذب الانتباه.

شاهدت في الفندق حيث الحفلة أشخاصاً من المكتب فابتسمت لهم.

تركت ستين وشقت طريقها إلى غرفة السيدات، لتسرّح شعرها وتجدد الماكياج. أخرت خلع المعطف ما وسعها ولكنها في النهاية أعطته للموظفة. عندئذ أحست كأنها غوّاص يغوص إلى أعماق البحر بلا معداته.

دخلت هاربيت مسرعة، وتوقفت لدى رؤية مارسيلا مذهولة.

ـ أحس أنني فظيعة هاربيت.. ليتني اشتريت ثوباً صوفياً!

ـ ثوباً صوفياً فوق كل هذا؟ أنت مجنونة يا حبي.. سوف تتغلبين على عزيزتنا ماريون بجمالك هذا.

ـ اسرعي هاربيت لا أريد الخروج بمفردي.

ـ اذهبي حبي.. سأمضي ساعات في وضع الماكياج.. أليس ستين بانتظارك؟ هيا اذهبي.. لا تدفعيني إلى الاستعجال، يكفيني ما فعله فرانك.

تركت مارسيلا غرفة النساء لتجد ستين واقفاً بمفرده قلقاً.. انضمت إليه، تدير ظهرها للجمع وتبتسم له. ولكن صوتاً مألوفاً قال من خلفها:

ـ أهذه مارسيلا التي نعرفها؟

التفتت تواجه مايكل. نظر إلى الصورة التي تمثلها، فكشفت عيناه أنه اكتشف قطعة فنية أصيلة غير معروفة.. قالت عيناه: هذه هي التحفة الحقيقية.. أخيراً قال وهو يلعق شفتيه وكأنه ذئب مفترس:

ـ يا إلهي.. من هو المهندس الذي صممك؟ أراهن انه ليس زوجك الحبيب.. هل هو هنا؟ يجب أن أشاهد التأثير.

أحست مارسيلا بالحرج، فقالت تحته:

ـ اذهب من هنا مايكل.. لا تزد الأمر سوءاً.

ـ لا تكوني مرتبكة هكذا.. هيا تعالي.

تقدمهما مايكل ثم لحقت به مارسيلا وستين. عندما دخلوا التفتت العيون إلى مارسيلا وتساءلوا: من هي؟

دقق فرانك النظر ثم قال مقطوع الأنفاس:

ـ من أين جاءت بهذا الجمال؟

ردت هاربيت: هذا كله من صنيعي.. فرانك.

ـ كان عليّ أن أعرف..

التفت إلى مارسيلا سائلاً: «هل رأيت أوسكار؟»

ـ لا أظنه وصل فرانك.

ـ لقد وصل.. رأيته مع تلك المرأة..

التفت نحو الباب:

ـ آه.. ها هما.

دخلت ماريون أولاً. بدت هادئة، جميلة ترتدي ثوباً أنيق كلاسيكي.

همس فرانك لزوجته:

ـ هاك عزيزتي الرد على سؤالك، انظري إلى أي مدى تقدمت علاقة أوسكار بها.

خافت أن تواجه عيني زوجها فحوّلت مجرى الحديث.

ـ فرانك.. أخبرني من يوجد هنا.. أرى وجوهاً غريبة.

ـ لا أعرف الكثيرين منهم مارسيلا.. أرى السيد مولدون وزوجته، السيد تورنر وزوجته.. مايكل هناك ينظر إليك كثعلب يبحث عن رفيقة، ورفاقه يراقبونك أيضاً.

تحرك إلى الخلف: «أوسكار! كيف حالك؟»

الآن، وقد أصبح زوجها على مقربة منها اضطرت إلى النظر إليه. كانت عيناه وهما تحدجانها غامضتين.. إذن، هاربيت مخطئة.. أوسكار لم يتأثر.

أبدت ماريون بعض الاهتمام فقال أوسكار:

ـ هذه ماريون.. وهذه مارسيلا.. زوجتي، زوجتي المنفصلة عني.

كان التركيز على الوصف متعمداً، لا مجال للخطأ فيه.

اشتدت حرارة عيني صديقته الباردتين، ثم مال الرأس بملوكية قبل أن تمدّ صاحبته يدها بحماس كمن يمد يده إلى قفص النمر.

أصيبت مارسيلا بالصدمة، فهي لم تتوقع من أوسكار المشبوب العاطفة أن يفكر في امرأة باردة كهذه. وجهت إليه عينيها لا إرادياً بحيرة.

همست هاربيت إلى زوجها الذي هز رأسه ثم تمتم إلى ماريون..

ـ هلاَّ رافقتني سيدة لاينود. سأقدم لك شراباً.. انظري هذا هو رجل الحفلة.. السيد تورنر الذي سيتقاعد قريباً.

قادها بلباقة وحزم بعيداً، أما هاربيت فأمسكت ستين.

ـ تعال.. لن أبقى بلا رجل. قدم لي شراباً، أيها العزيز.

ثم اقتادت ستين المعارض بعيداً، وفي عينيها نظرة ذات مغزى.

هكذا وبمناورة بارعة، تركت مارسيلا بمفردها مع أوسكار.. ظلا

لفترة صامتين، كان أوسكار قد استند إلى المدفأة الكبيرة تاركاً عينيه تتحسسان طريقهما فوقها.. ولكن لم يكن فيهما تقدير أو إعجاب.

قال بصوت هادىء: «إلامَ تسعين بارتدائك هذا الثوب؟ لا تقولي.. عرفت لا بد أنك يائسة.. حقاً».

ضبطت أعصابها، ترفض الإثارة، أما عيناه فهبطتا إلى عنقها:

ـ يجب أن تضعي عارضة «للبيع» بدلاً من هذا العقد الذي يلف عنقك.. إذ ستتلقين عروضاً من الرجال هنا، أكثر مما تستطيعين تحمله.

ـ إن كنت تشير إلى أن هذا الفستان رخيص، فأنت مخطىء إنه مرتفع الثمن.

ـ يا امرأتي العزيزة.. لم ألمح إلى ثمن الفستان.

كادت تبكي: «اسمع أوسكار.. أعرف أنك لا تحبني، إنما لا داعي إلى إهانتي».

ـ أنا أهينك؟ آسف إن أهنتك. ولكنك تسعين فعلاً وراء المتاعب.. لقي، لولا اصطحابي امرأة أخرى لحصلت على هذه المتاعب قبل انقضاء الليل. الغريب أنني الرجل الوحيد الذي يحق له قانونياً إعطائك «المتاعب» التي تطلبين..

شاهد تصاعد غضبها، فسأل ساخراً:

ـ ما بالك؟ هل تتوقين إلى صفع وجهي؟ حذار، لأنك إن صفعتني رددت الصفعة بأخرى أقسى منها.

ارتدت عنه تبحث عن هاربيت، التي كانت تراقبهما. ما إن اقتربت مارسيلا حتى قالت لها:

ـ هل عاد إلى سخريته حبي؟ أرجو أن يكون ردك بمقدار ما تلقيت منه.

هزت مارسيلا رأسها غير قادرة على الكلام، فوكزت هاربيت زوجها الذي سارع إلى تقديم شراب لها. راقبوا أوسكار يسير لينضم إلى ماريون التي كانت واقفة مع مايكل.

كان الضيوف يتوجهون إلى غرفة الطعام، يبحثون عن أماكنهم المحددة.. انضم ستين إلى مارسيلا، ودهشا عندما وجدا أن مائدتهما قرب المائدة الرئيسية.. كان أوسكار بالطبع مع سائر المديرين وإلى جانبه ماريون.

شاهد السيد تورنر مارسيلا، فرفع لها يده بحييها تحية حارة. ابتسمت له فهز السيد مولدون لها رأسه مبتسماً. قُدمت الوجبة وسط الضحكات وتبادل أطراف الأحاديث.

سرعان ما انتهى العشاء، وترك الضيوف مقاعدهم، ووجدت مارسيلا نفسها منفصلة عن ستين، واختفى فرانك وهاربيت كذلك. عندئذ شعرت بالضياع.

اقترب مايكل منها، يلحق به نصف دزينة من الذين عرف عنهم على أنهم أصدقاء من فرع «ميدلاند».

ـ مرحباً.. كانوا يصيحون كالذئاب يريدون التحدث إليك طوال السهرة. لقد أرادوا إلقاء نظرة واحدة عن قرب على السيدة ذات الثوب الأسود، كما سمّوك وأرادوا كذلك أن يعرفوا من أنت. فلم أخبرهم.. قلت فقط إنك «امرأة غامضة».. هذه مارسيلا.. سكرتيرة رئيس المؤسسة.

عرفها إليهم واحداً واحداً فتحلقوا حولها، محاولين دفع بعضهم البعض عن الطريق.. قال أحدهم: لدي سيارة سباق رائعة إن أردت تجربتها.. وقال آخر: «لدي هواية حفر رائعة، تعالي لتشاهديها يوماً!» سأل ثالث: «أتحبين أن تكوني سكرتيرتي؟»

قال مايكل وهو يضع ذراعيه حولها:

ـ ابتعدوا جميعاً.. ليست هذه الفتاة معروضة.. إنها..

قال صوت حده كحدّ سيف:

ـ هلاّ سمحتم لي أيها الذئاب بالوصول إلى زوجتي.

تهاوت ذراعا مايكل وتفرق الجميع تاركين الطريق فارغة أمام

أوسكار.

سأل أحدهم: «ماذا؟ هل قلت زوجتك؟»

رفع مايكل يده اليسرى فشاهدوا خاتم الزواج.. وقال آخر:

ـ لكن يا أوسكار، قلت لنا عندما كنت في «الميدلاند» إنك منفصل عن زوجتك.

رد أوسكار: «هذا صحيح، نحن منفصلان».

ـ يا إلهي أوسكار.. ما بك؟ فتاة كهذه..!

قال آخر ممازحاً: «هل فقدت براعتك أوسكار؟ أنسيت كيف تسعد امرأة؟ يا رجل.. لو كانت زوجتي لما تمكنت من إبعاد يدي عنها!»

أمسك أوسكار معصم مارسيلا بأصابع وحشية وشدها وراءه:

ـ أريد تقديمك إلى السيد ويلهلم، أحد مديري فرع «ميدلاند» وهو الفرع الذي جاء منه كلاب الصيد أولئك.

قاومته مارسيلا:

ـ أليس من الأفضل أن تقدم له ماريون؟ لماذا أنا؟

ـ لست متزوجاً من ماريون حتى الآن.

حاولت الهرب: «قدمها على أنها الزوجة العتيدة».

ـ هلاّ صمت!

ـ لا.. لن أصمت، يجب أن أعود إلى ستين. ـ أنت تؤلمني.. أوسكار.

ضاعف من إحكام قبضته عليها: عظيم.

عندما وجدا الرجل الذي يسعيان إليه، ترك معصمها ليمسك يدها.. استراحت من الشد الذي قامت به يده، فتركته يمسك يدها بدون احتجاج.

ـ سيد ويلهلم؟

التفت الرجل الذي خاطبه أوسكار، كان طويلاً، عريضاً، رمادي الشعر، مرحاً ذا ابتسامة دافئة..

أضاف أوسكار: «أتسمح بأن أعرفك إلى زوجتي، مارسيلا؟».

ـ آه.. سيدة بلووم.

أحاطت يده الضخمة بيدها:

ـ كنت راغباً في مقابلتك. تكلم زوجك عنك كثيراً عندما كان يعمل معنا، قبل أن يعود شمالاً ليحل مكان السيد تورنر أم أقول في مقعده؟

رنت ضحكته عالياً فبادلاه الضحك ثم لمّا شاهد أيديهما المتشابكة ضحك.

ـ يسرني أن أراكما معاً من جديد، الزواج يتقدم نحو الأحسن مع مرور السنين.

نظرت مارسيلا إلى أوسكار ولكن وجهه لم يكشف لها شيئاً.. لم يطاوعها قلبها بتصحيح وهم هذا الرجل الطيب.. لن يطاوعها قلبها لتقول له: «هذا كله ادعاء، سيبه صورة أوسكار في المؤسسة التي أصبح الآن أحد مديريها».

تحدث أوسكار إلى السيد ويلهلم بضع دقائق ثم اقتادها مبتعداً.

انتزعت يدها من يده.

ـ لقد مثلت مهزلتك الصغيرة.. والآن هلاَّ عدت إلى صديقتك.. قد تكره رؤيتك يداً بيد مع زوجتك المهجورة.. وقد تتخلى عنك.. وهذا ما لن يفيدك.. أليس كذلك؟

تجاهلت غضبه، الذي كاد يبلغ حد الغليان.

ـ فكر في ما ستخسره في المستقبل فيما لو فقدت زبونتك الثمينة.

قال بغيظ: «لو كنت قادراً على تنفيذ ما أريد، لجعلتك تبتلعين هذه الكلمات».

ردت وعيناها تومضان تحت أنوار الثريات:

ـ حسن جداً.. لن تستطيع تنفيذ ما تريد.. هيا احتفظ باطراءاتك إلى صديقتك «السيدة الجميلة»! سأبحث عن ستين.. فلا أنوي هجره كما هجرتني، منذ ثلاث سنوات.

اندفعت تشق طريقها بين الحشود، محاولة نسيان نظرة أوسكار المشبعة بالكراهية.

٨ ـ المال أو السعادة

سارت المسرحية في مسار سريع وكاد يقترب وقت عرضها. في أثناء التمارين، كان أوسكار يعمل وراء المسرح مع كولمان.

وفي أحد الأيام، ترك أوسكار زملاءه وقت الغداء وتقدم لينضم إلى مارسيلا وهاريت التي قالت له مبتسمة:

ـ أما زلت تدني مستواك إلى مستوانا أوسكار؟ حتام ستستمر في الاختلاط مع عامة الناس؟

ابتسم لمارسيلا: «هيا.. قوليها.. قولي إنني ديمقراطي بشكل لا يصدق»

أشاحت بصرها عنه باتزعاج:

ـ بما أنني أعرفك نعم المعرفة فلن أتوقع منك غير هذا. لا أنكر أن لك أخطاءك، ولكن التكبر ليس منها.

تظاهر بأنه يعاني من آثار الصدمة، وفك ربطة عنقه:

ـ يا الله! إن إطراءك هذا يذهلني.. مع أنك توضحين كيف تصنفين أخطائي.

دعكت هاريت يديها:

ـ هل سأشهد شجاراً بين زوجين؟ هيا.. تابعا.. كلي آذان صاغية.

قال أوسكار ببرود:

ـ كلمة زوج غلطة فادحة منك.. هاريت.. لم تعد تنطبق علينا.

وقفت فجأة لتنضم إلى زوجها قائلة:

ـ لقد خيبت أملي.. ظننتكما ستتصرفان كزوجين عاديين، تتشاجران، ثم تتصالحان بشكل عاطفي.

ثم أصبح صوتها حاداً:

ـ ألم يحن الوقت لتتوقفا عن التصرف كالبلهاء؟

نظرا إليها بدهشة، ثم تبادلا النظرات ثم جرى سؤال صامت بينهما.. «ما الذي يضايقها؟». أربكهما التواصل الصامت، لقد جاء السؤال عفوياً إلى درجة أن يكون بحد ذاته كافياً للإتيان بالصلح الذي أملت به هاربيت.

سألها أوسكار وهو يحرك سكيناً فوق الطاولة كدائرة الروليت: «هل أنت حرة هذا المساء؟»

ابتسمت: «أتريد موعداً؟».

رد الابتسام: «نعم، بطريقة ما! المشاهد جاهزة لتراها المخرجة.. أيمكنني اصطحابك الليلة لتلقي عليها نظرة؟»

ـ إذا أحببت.

كانت السكين التي يديرها تتوقف في الموضع نفسه وبدا أن هذا أخذ يوتر أعصابه.

قالت: «لن أدعوك إلى العشاء.. فقد تعترض على الطعام غير اللذيذ الذي أستطيع طهوه على طباخي العتيق الذي يكاد لا يبلغ مصاف «المطاعم الشهيرة» التي اعتدت عليها».

ـ أعتقد أن ستين يأكل من طعامك غير اللذيذ، وكأنه طعام مطهو في «الريتز» الشهير!

ـ لم يتذمر قط.

أدار السكين، بقوة هذه المرة، حتى سقطت عن الطاولة وانحنى يلتقطها لاعناً.

ـ لن يتذمر بالتأكيد.. فهو رجل كامل.

ردت بلطف ممزوج بابتسامة خفيفة:

ـ ليس كاملاً أكثر منك.

أرجع كرسيه إلى الوراء وكأنه أنهى لعبة الروليت.. وخسر..

ـ أصحبك في الثامنة.

وعاد إلى زملائه.

كان الثلج يتساقط عندما وصل. قالت مارسيلا وهي جالسة في مقعد سيارته الأمامي:

ـ مسرورة أنا لأنني لا أقود السيارة، إذ ترعبني حالة الطقس.. أخشى الانزلاق دائماً.

ـ ثمة قواعد لتتجنبي الانزلاق.. من المهم أن تعرفي كيف تتصرفين.. سأمرنك على ذلك يوماً. إنما عليك أن تثقي بي ثقة تامة.. فهل أنت قادرة على هذا، مارسيلا؟

مضت لحظات عليها قبل أن تعطيه الرد الذي رددته ببطء:

ـ مضى وقت كنت أستطيع فيه أن أؤمنك على حياتي..

ولكنه لم يرد.

كان كولمان بانتظارهما في المسرح. غاب أوسكار وكولمان خلف المسرح ثم سمعت لعنات متفرقة دليل إصابة أحدهم بكدمة.

جاء صوت أوسكار:

ـ هل أنت جاهزة سيدتي المخرجة؟

انفتحت الستارة، وكان المشهد الذي جمعاه يعود للجزء الثاني، باب إلى اليسار، النافذة في المنتصف، من ورائها «منظر» حيوي للمسرحية. الأبواب الزجاجية لها مظهر واقعي..

اقترب أوسكار ليقف قربها: «أيعجبك؟»

شعت عيناها: «ما أروعه! كيف لي أن أشكركما».

أشار كولمان إلى أوسكار:

ـ أشكريه هو، لقد نفذت ما طلبه مني. إنه محترف. بإمكانه اتخاذ هذا العمل مهنة.

ضحك أوسكار:

ـ إن طردتني يوماً مؤسسة مولدون وبلووم فلن أقلق على مستقبلي..

بدا التأثر على كولمان: «لم أعرف أنك أحد الرؤساء».

ـ حللت محل السيد تورنر..

ابتسم لمارسيلا: «هل يغريك هذا مارسيلا لتأتي للعيش تحت سقف بيتي وتشاركيني ما أكسب؟»

تظاهر كولمان بالارتياع: «هاي مهلك يا رجل! هل تطلب يدها؟ حذار فقد تقبل!»

ضحك أوسكار عالياً، حتى رنت ضحكته في المسرح الفارغ. تقدمت مارسيلا إلى المسرح تقول:

ـ لا يثير المال اهتمامي كثيراً، فهو لا يضمن الزواج السعيد.

قال أوسكار:

ـ لا.. ربما لا.. لكنه يقطع مسافة كبيرة إليها. إذ لا يتوافق الفقر والسعادة الزوجية، أليس كذلك؟

لم ترد عليه، بل سألت: «ألديكما مشاهد أخرى لأراها؟»

قال كولمان: «أجل.. تعال أوسكار لنجمع المشهد الأول، فقد يستغرق إعداده وقتاً مارسيلا».

ـ هل أستطيع تقديم العون؟

ـ لا.. شكراً.

عارضه أوسكار: «بل تستطيع! ثلاثة أسرع من شخصين».

ـ هذا كثير، أتتوقع منها أن تحمل شيئاً؟

قال بقسوة: «ليست مصنوعة من الخزف، كما أنها هي من عرض المساعدة.. وكانت تعني ما تقول وإلا للاذت بالصمت. هيا مارسيلا إلى ما وراء المسرح، وساعديني في حمل الأغراض».

نظر كولمان إليها متوقعاً منها الغضب ولكن إذعانها أذهله.

عندما ذهب كولمان إلى طرف المشهد، همس أوسكار لها:

ـ أنا مسرور لأنك تذكرت القاعدة الأولى للزواج الجيد.. على

الزوجات أن يطعمن أزواجهن..

احتج عندما رفعت يدها: «اسمعي، بمقدوري رغم كل دعوات تحرير المرأة أن أردك إلى مكانك الصحيح، فوق ركبتي».

همست بشراسة: «إن لم تتوقف عن إزعاجي رحلت».

قال بصوت عالٍ: «يا للكارثة. من سمع بمخرج يرحل؟ من الممكن أن ترحل البطلة أما المخرجة فأبداً».

سألها كولمان: «ما الأمر مارسيلا؟ هل تتشاجرين مع مديرنا الفني؟ لا تجادليه حباً بالله.. جامليه.. إنه أثمن من أن تخسره!»

ضحك أوسكار: «هاك.. سيدة بلووم.. لقد تلقيت أوامرك.. جامليني».

همس في أذنها: «ستفعل ذلك لاحقاً».

وابتسم لنظراتها الإجرامية المصوبة إليه.

وافقت مارسيلا على المشهد الذي عرضاه عليها..

في طريق العودة، في سيارة أوسكار، نظرت مارسيلا خارج النافذة، وأدركت أنهما يسيران في اتجاه معاكس لاتجاه منزلها فسألت: «إلى أين تأخذني؟»

ـ إلى شقتي.. فكرت في أن تعدي لنا بعض القهوة.. عرفت أنني لو طلبت منك ذلك لقلت «لا».. لذا لم أطلب.

أوقف السيارة: «كما عرفت أنك لن تدعيني إلى شقتك. على أي حال في شقتي تدفئة مركزية أما شقتك فباردة برودة ليس بعدها برودة».

ـ آسفة إن لم يعجبك بيتي.. إنما لا شأن لك به.

ـ آه! توقفي عن الجدال.. وتعالي.

لم تستطع مارسيلا التوقف عن الارتجاف رغم دفء الشقة.. فأدار أوسكار النار التقليدية، وجلست أمامها.. قال أوسكار وهو يساعدها:

ـ أعطيني معطفك.. سيخترق الدفء أوصالك.

ـ سأعد القهوة.

ـ ابقي حيث أنت.. سأعدها بنفسي.

ـ لا حاجة إلى معاملتي كضيفة.. أنا زوجتك، أو كما تصفني دائماً لصديقتك «زوجتك المهجورة».

ترك التعليق يمرّ ثم مضى ليعد القهوة. في هذه الأثناء احتبت مارسيلا أمام المدفأة الكهربائية تتساءل عن السبب الذي دفعه لاصطحابها إلى شقته كما تساءلت حتام تستطيع تحمل هذه العلاقة العذرية، قبل أن تتحطم إرادتها تحت ضغطه. لن تستطيع المقاومة إلى الأبد فهي تتوق إلى لمسه لتظهر حبها له، كحال أية زوجة حقيقية.. نظرت إلى المستقبل فإذا الصورة كئيبة كآبة كادت معها ترغب في تحطيم الكرة الكريستالية التي نظرت إليها.

ـ القهوة مارسيلا.

كان واقفاً قربها، فاستقامت لتتناول الكوب الذي يقدمه لها، ثم جلست في مقعد ذي مسندين. جلس هو أيضاً وقال:

ـ تعلمين أنني ذاهب إلى الميدلاند مدة ثلاثة أيام في الأسبوع المقبل بسبب المؤتمر؟ وجانيس قادمة معي.. أتعلمين هذا؟

هزت رأسها إيجاباً.

ـ لكنني لست مسروراً بذلك، إذ أتمنى لو أصطحب معي من هي أنضج منها. إنها فتاة طيبة، لكنها ليست ذكية.. ألا يمكنك المجيء عوضاً عنها؟

وهل أذهب معه سكرتيرة لا زوجة؟ وهل أتظاهر بأن لا شيء بيننا حتى الصداقة؟

ـ آسفة.. لا.

ارتشف قليلاً من القهوة عابساً.

ـ عرفت أن هذا ما سيكون عليه جوابك، فكيف تبتعدين عني ستين هذه المدة كلها؟ ثلاثة أيام؟

لم تكذبه.. فما الفائدة؟

أضاف: «أتعرفين؟ سأتلو خطاباً على المشاركين في المؤتمر عن ميول الهندسة في المستقبل وسيأتي بعده نقاش هام، ومن الضروري جداً أن يكون

معي تقرير مفصل. ولكنني لسوء الحظ، لا أستطيع الاعتماد على جانيس بالدقة».

عرفت أنه تصريح يقصد منه اجتذاب رد منها لتشفق عليه فتوافق. ظلت تنظر بصمت إلى ألسنة اللهب، فتنهد. ولكنها لم تتحرك أو ترد.

كانت تعابير وجهها قاسية متحجرة، ولكنها قناع يخفي مشاعرها، وعذابها، ورغباتها. ولو تحركت في تلك اللحظة، لوجدها إلى جانبه، على ركبتيها، رأسه في حجرها، وذراعاها تسعيان إلى ذراعيه لتشدهما إليها حتى تحيطا بها.

كسر الصمت.

ـ هل ذهبت إلى الموقع مؤخراً؟

هزت رأسها نفياً، فأردف:

ـ إنهم يحفرون الأساسات.

قالت بصوت خفيض: «هل يطول الأمر قبل أن يرتفع البناء؟»

ـ أجل. أعتقد أنك تعرفين أنني صممت المبنى الذي سيقام هناك؟ ولن أذر الملح فوق الجرح بعرض الخرائط عليك. إلا إذا أحببت رؤيتها؟

كان ينظر إليها بطريقة لا يمكن تفسيرها إلا بأنها أمل. وكانت فرصة لها لفعل ما أقنعت نفسها بأنه كان عليها القيام به منذ سنوات ألا وهو إظهار الاهتمام بعمله..

قالت: «أجل.. أرجوك».

هبَّ واقفاً ليبحث في حقيبته عن خرائط المشروع، أشار إلى الطاولة حيث وضع الخرائط.

ـ تعالي إلى هنا.

دنت منه ووقفت إلى جانبه، فقال ساخراً:

ـ اقتربي أكثر.. لا تخافي، لست مصاباً بداء معدي.

جلست على كرسي ثم راحت تصغي إلى ما يشرحه لها عن التقنيات التي كان من الممكن أن تفشل في فهمها.. وقال:

ـ أترين.. أولاً على المهندس ألا يصمم فقط، بل أن يفكر في البناء على أساس متانته.

ضحكت، فابتسم: «هذا صحيح.. لقد سمعت عن مهندسين معروفين بالرومانسيين لا يبنون القصور في الهواء فقط، بل يبنون المكاتب والمستشفيات على أساسها.. يعتقد الناس أننا لا نفعل أكثر من الجلوس وراء مكاتبنا، نرسم صوراً جميلة، نخطط الخرائط، التي لا علاقة لها بالحياة الحقيقية»..

واستطرد في الموضوع ففكرت بفخر أنه معلم ممتاز.

كانا مستندين إلى مرفقيهما متقاربي الوجه حتى يكادا يتلامسان. التفت أوسكار ينظر إليها قائلاً:

ـ ليتني فعلت ذلك منذ سنوات! ليتني أزعجت نفسي قليلاً بشرح طبيعة عملي لك!.

رن جرس الهاتف.. فعبس:

ـ سأتخلص من المتصل كائناً من كان. لا تهربي.

كان الهاتف في الردهة، وسمعته يقول:

ـ ماريون؟ نعم؟ حسناً، هذا لطف منك لكنني.. مشغول الآن.. ولولا ذلك لسررت بتلبية دعوتك.. آسف عزيزتي.

وجدت مارسيلا معطفها وارتدته فتابع أوسكار حديثه:

ـ لا.. لم أنسَ المسرح غداً.. أجل، حفلة بعد الظهر.. هل يتوق روبرت إليها؟

لفت مارسيلا الوشاح حول عنقها، ووضعت قفازيها:

ـ سنتناول الطعام بعد المسرح.. لا عمل عندي مساء الغد..

نظر حوله، فشاهد مارسيلا واقفة في الباب الأمامي:

ـ يجب أن أذهب ماريون.. أراكما غداً. تصبحين على خير.

وضع السماعة وقال: «إلى أين؟»

ـ إلى بيتي.. لتتمكن من الذهاب إلى صديقتك. لن أقف في طريقك،

لم أدع نفسي إلى هنا بل أنت من أحضرني.

هز كتفيه: «إن أردت الذهاب فسأحضر معطفي».

ـ أستطيع الذهاب بالباص، لا تزعج نفسك.

ارتدى معطفه: «خففي من غلوائك مارسيلا وتوقفي عن التصرف كزوجة غيور».

قالت بفظاظة: «إنها القشة التي قصمت ظهر البعير! ها أناذا، أبعد نفسي بكل لباقة عن طريقك لتهرع إلى ذراعي صديقتك.. ولكنك تتجرأ بكل وقاحة على نعتي بالزوجة الغيور».

فتحت الباب بعنف، وهرعت إلى الدرج ولكنه لحق بها، وأجبرها على التوجه معه إلى السيارة.. لم يتكلما حتى أوقف السيارة أمام منزلها.. فقالت له:

ـ شكراً لكل ما قمت به من عمل في المسرح وللقهوة.

قال بصوت متوتر يماثل توترها:

ـ ألديك شيء آخر؟ لم تستهلكي حتى الآن كل اللائحة.. أليس كذلك؟ ولعرضي عليك الخرائط، ولشرحها لك، ولأنني كنت لطيفاً معك.. لماذا لا تنهين كلامك كفتاة صغيرة طيبة كانت في حفلة، وتختمي القول بـ«شكراً لك لأنك صحبتني».

وانطلق بالسيارة تاركاً إياها على الرصيف.

قبل يومين من سفر أوسكار إلى المؤتمر، دعت هاربيت مارسيلا لقضاء أمسية معها.

فتحت هاربيت الباب لها فقالت مارسيلا:

ـ أتعلمين أنني لم أزرك منذ أكثر من شهرين؟

ـ هذا صحيح!

جلست مارسيلا قرب النار المشتعلة مع هاربيت التي سألت: «وماذا عن علاقتك بأوسكار؟».

ـ ما تزال على حالها. يبدو أن ماريون تلك قد اجتذبته إذ يكاد يكون

جزءاً من عائلتها في الوقت الراهن.

ـ لكن، مارسيلا.. لا يستطيع فعل شيء قبل أن يطلقك.. فلماذا لا يوافق؟ هل سألته؟

ـ أجل.. لقد وضع شرطاً.

ـ أي شرط؟

ـ قال إنه يريدني مرة أخرى.

ـ مارسيلا.. هذا شائن، وهل رفضت؟

ـ لست من حجر هاريت.. تعرفين أنه مسافر بعد يومين إلى مؤتمر؟ وسترافقه جانيس؟

ـ أجل.. لكنني سمعت أن والدة جانيس مريضة.. وبما أن لا أحد معها في المنزل فقد لا تتمكن من الذهاب معه.

ـ حسناً.. ولكنني لن أذهب معه هاريت.. لقد طلب مني ورفضت..

فيما كانت مارسيلا جالسة على كرسي مرتفع في المطبخ تتابعان تبادل أطراف الأحاديث انفتح الباب الأمامي فتهللت هاريت:

ـ آه.. ها هو فرانك.. وصلت في الوقت المناسب، القهوة جاهزة حبيبي.

سألها: «ألديك ما يكفي أربعة؟ أوسكار معي».

اتسعت عينا هاريت ونظرت إلى مارسيلا.

ـ لم أكن أعرف عزيزتي.. صدقيني، أنا آسفة.. يبدو أن فرانك هو من دعاه.. قلت له إنك قادمة لتسليتي.. ضعي اللوم عليه إذن!

ردت على زوجها:

ـ طبعاً حبيبي.. أدخل أوسكار إلى غرفة الاستقبال.

توجهت هاريت إلى الردهة ترافقها مارسيلا.. وقف الرجلان.. ولكن أوسكار انتفض سائلاً:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

التفت إلى فرانك: «لم تخبرني بأن عندكما ضيفة».

قال فرانك: «لم أفكر في أن من الضروري إخبارك يا رجل.. إنها زوجتك.. فظننتك ستسر برؤيتها هنا».

أصبح الموقف محرجاً فحاولت هاريت تغيير الموضوع:

ـ هل أخبرت أوسكار بأمر حملي يا حبيبي؟

رد أوسكار: «أجل.. تهاني القلبية هاريت».

أضاف وعيناه على مارسيلا:

ـ لا يربط شيء الزوجين كالأولاد.

تورد وجه مارسيلا بشدة، فقالت هاريت وفي عينيها نظرة ماكرة:

ـ تقول الشائعات يا أوسكار إنك ستحصل على ابن «جاهز» لك قريباً.

قدمت له فنجانه مبتسمة ثم مدت مارسيلا طبق من البسكويت.. والآن جاء دوره ليحمر وجهه غضباً. نظر إلى مارسيلا:

ـ من يقول هذا؟ أنت؟

وقف فرانك الجالس إلى جانبه على الأريكة مشيراً بسخرية إلى مارسيلا لتأخذ مكانه:

ـ إن كنتما ستتشاجران فتشاجرا وأنتما على مقربة من بعضكما بعضاً إلا إذا كنتما ستستخدمان الصواريخ!

أدرك أوسكار أن فرانك يحاول إنقاذ الموقف، فضحك.

ـ آسف فرانك، مارسيلا اجلسي، سنعقد هدنة.

كان على مارسيلا أن تذعن.. فهما ضيفان، والمضيفان صديقان لهما.. سألت هاريت في محاولة منها لتغيير دفة الحديث.

ـ ماذا فعلتما هذا المساء؟

رد عليها زوجها: «عملنا على تصميم مبنى أوسكار الجديد. لا أدري إن أخبرك أحدهم مارسيلا مدى براعة زوجك الهندسية».

حذرها أوسكار: لا تردي على هذا مارسيلا.. إنه سؤال «ملغوم» إن قلت «نعم» أظهرت افتخار زوجة بزوجها وهذا أمر بعيد عنك، وإن قلت «لا» بدأت فوراً بإخباره وهذا ما سيزيدك إحراجاً.

منتديات ليلاس الثقافية

قالت هاربيت:

ـ أمن الممكن التعرف إلى عمل مهندس معيّن من خلال تصميماته؟

رد زوجها: «طبعاً، وعلى ميزاته وشخصيته».

قال أوسكار مبتسماً ابتسامة استفزازية:

ـ إن مررت ببناية ذات مظهر شرس غير إنساني، فاعلمي أنها لي، أليس كذلك مارسيلا؟

ضحكت مع الآخرين، فالتفت إليها فقالت له: «مسرورة أنا لأنك تعرف مساوئك».

تمتم بلهجة ماكرة ساخرة: «سأذكر لك يوماً مساوئك. إنما عليك في ذاك الوقت أن تتفرغي أمسية كاملة لأن الحديث عنها يطول».

ثار الضحك ثانية ولكن مارسيلا التي ثارت ثائرتها، ابتعدت عنه.. وعند رؤيته الحركة المتعمّدة اقترب منها مجدداً..

قال فرانك: «حذار مارسيلا، فعلى ما أرى أن زوجك قد صمم خططاً لك».

قال أوسكار: «قد تكون على حق، ففي أحد الأيام..»

قاطعته مارسيلا: إذن أنت تنظر إليّ عبر نظارة وردية.. فاسمي مارسيلا، لا ماربون، أوسكار.

أصابت الطلقة الهدف فانمحت الابتسامة عن وجهه.

أحست هاربيت بالتوتر، فمدت يدها إلى ما تحيك:

ـ أتظنون أن هذا سيناسب الوافد الجديد؟

رد فرانك يحاول إعادة المرح إلى الجلسة:

ـ وهل وُلد حتى نعلم.

خففت مقاطعتهما من حدة التوتر.

كان الوقت متأخراً عندما وقفت مارسيلا، فقال فرانك: «سأقلّك إلى المنزل».

سأل أوسكار:

ـ لماذا.. أليست سيارتك معك مارسيلا؟

ـ لا.. جئت بالباص.

وقف أوسكار: «لا تزعج نفسك فرانك سأقلّها بنفسي».

هز فرانك كتفيه: «شرط أن تتمكنا من ردع نفسيكما عن الشجار أثناء التوجه إلى شقة مارسيلا».

لم يتحدثا طوال الطريق وبدا أن لدى أوسكار ما يشغل باله.. أوقف السيارة قرب الرصيف، وكانت مارسيلا على وشك تركه عندما سأل:

ـ هل لي أن أدخل؟

أثر فيها تواضعه غير المألوف بطلبه منها أن تدعوه إلى منزلها، فردت بحرارة:

ـ طبعاً.. أوسكار.

في صوتها لهفة تشبه من يرحب بالآخر بذراعين مفتوحتين.

بدا أن شيئاً ما يزعجه.. أخذ يجول في الغرفة، ينظر إلى اللوحات الفيكتورية العهد على الجدران.

أخيراً قالت: «سرني نبأ حمل هاربيت».

متى سيقول لها ما الذي دفعه للدخول؟

عندما التفت إليها لم يكن في عينيه أثر للطف:

ـ أجل.. خبر سار.. أظنك من زودت هاربيت بالمعلومات عما هو شأني الخاص.

عرفت الآن لماذا جاء.. جاء ليبدأ شجاراً آخر.. لم يستطع التطرق إلى الموضوع خلال الأمسية، فخزن امتعاضه حتى انفرد بها.

ـ إن كنت تشير إلى ما أشارت له هاربيت عن زواجك المرتقب.. لا أستطيع أن أدعوه زواجاً.. أليس كذلك؟ الرد هو نعم، فعلت.. لكن «شأنك الخاص» كما تسميه ليس خاصاً بالمطلق، لأنك جعلت من صلتك بها أمراً عاماً.

ـ أما علاقتك بستين فتحافظين عليها سرية.

- ليس لي علاقة به.. نحن صديقين ليس إلا.

- لا تكوني منافقة إلى هذه الدرجة.. أعرف أشياء كثيرة.

صاحت به: «أنت لا تعرف شيئاً! وما تلك الملاحظة عن أن الأولاد رابط قوي بين الأهلين؟».

- سرَّني أن هذه الملاحظة أصابت وتراً. قصدت لو كان لنا طفل لما انفصلنا. من يدري؟

توقف قليلاً ثم أضاف:

- على الأقل أنجبت ماريون لزوجها طفلاً قبل أن يموت.

أثارها أكثر مما تطيق:

- كيف لك أن تكون بهذه القسوة؟. تعرف أننا ناقشنا مسألة إنجاب الأطفال في الفترة الأولى على زواجنا، وقررنا أن ننتظر لأننا لا نملك من المال ما يوفر للطفل ما نرغب في تقديمه له. تعرف أنني كنت أريد طفلاً وما زلت أريد، فكلما رأيت طفلاً أشعر برغبة في حمله ورعايته وأتصور أنه ولدي..

وغصت بدموعها.

رد ساخراً: «وأنا.. مجسد الشيطان.. لا أعتق سراحك وأمنعك من الزواج بستين دويل ومن تحقيق حلمك. ما أعظم ما تحملينه في قلبك من كره لي. ربما كان عليّ أن أمنحك طفلاً قبل أن أتركك.. لكان ذلك سكّن على الأقل شوق الأمومة فيك».

واجهته وشفتاها ترتجفان:

- لم أعرف أنك قادر على أن تكون بهذه الوحشية! وأنا من ظننت أنني أعرفك! كنت أحترم فيك الرجل الخلوق ذا المبادىء العالية.

وضع يديه في جيبيه:

- والآن بتّ لا تحترمينني.. حسناً.. أستطيع القول إنك كبرت، وأصبحت تريدني رجلاً عديم المبادىء فاسداً، بلا أخلاق.

همست: «لم أظنّ للحظة أن بمقدور أحد أن يتغير إلى هذه الدرجة في غضون سنوات ثلاث».

لم يرد عليها. بل نظر إليها متأملاً.. دنا منها، مطأطىء الرأس فارتدّت عنه.

قال: «لا تقلقي زوجتي الحبيبة.. لا نية عندي أن أخرش بك.. إذن، تريدين طفلاً؟ الحل بسيط.. لماذا لا تحملين طفل ستين؟ لماذا الانتظار حتى تتحرري مني؟ النساء في مثل هذه الأيام لا يزعجن أنفسهن بهذه التفاصيل الدقيقة.. على أي حال، ستتجين بفعلتك.. لك اسم زوج.. اسمي أنا الذي سيحمله الطفل بدون شك».

ارتفعت يدها لا إرادياً وسقطت بوحشية على خده.. تطاير الشرر من عينيه، وارتفعت يده ليضربها، فتراجعت ولكن يده لم تنهاو على وجهها، بل أوقفها وكأنه غير قادر على أذيتها.

كانت عيناها المغرورقتان بالدمع ترويان قصّة يؤسها. تراجعت يده وهوت إلى جنبه ثم ارتدّ على عقبيه متوجهاً إلى الخارج.

* * *

٩ ـ من يطلب الرحمة؟

في الصباح التالي، استدعى السيد مولدون مارسيلا وما إن دخلت حتى قال لها:

ـ سيدة بلووم. سأتطرق مباشرة في الموضوع. تعرفين أن زوجك ذاهب إلى مؤتمر مدة ثلاثة أيام غداً ولكن من سوء الحظ أن جانيس لن تتمكن من الذهاب لأسباب عائلية، أما غايل فرفض أهلها أن تسافر وبما أنها دون السن القانونية لم نستطيع الاعتراض. وهناك السيدة كوري التي يمنعها حملها من السفر وبناء على ذلك لا يبقى أمامنا إلا أنت.

سحبت مارسيلا نفساً عميقاً لترد، فرفع يده:

ـ أعرف سيدة بلووم ما ستقولين.. ولكنني آمل أن تضعي اعتراضاتك الشخصية جانباً. ألا أمل بعودة المياه إلى مجاريها بينكما؟

هزت رأسها، ثم قالت له:

ـ أيعرف.. زوجي أنك تطلب هذا مني؟

ـ ناقشنا الأمر بالطبع.. وأقر أنه الحل الوحيد.

نظر إليها ثم أردف:

ـ والآن سيدة بلووم.. هل ستذهبين؟

ـ أجل.. سيد مولدون.

تنفس هذه المرة الصعداء.. لقد حلت المشكلة.

ـ ستسافران غداً، وهذا يعني أن عليك توضيب حقيبتك الليلة.

ردت مارسيلا بأنها فهمت، وعادت إلى غرفة السكرتيرات، التي ما إن

دخلتها حتى رن الهاتف.

قالت هاربيت: «لك مارسيلا».

وكان أوسكار:

ـ مارسيلا؟ هل أنت قادمة معي غداً؟

ـ أجل.

أنتهت المكالمة بأسرع مما بدأت إذ أقفل الخط بدون أن يقول حتى كلمة شكر.

تساءلت عما إذا كان سيحضر تمارين المسرحية ذلك المساء..

صحبها ستين كالعادة إلى القاعة.. وعندما دخلا شاهدا أوسكار واقفاً قرب دوللي، وذراعه على كتفيها.. كان يضحك وكأنهما تشاركا مزحة.

لوحت دوللي لها، فأجبرت مارسيلا نفسها على الابتسام. ترك أوسكار دوللي ووقف غير مبتسم يراقب ستين وهو يساعد مارسيلا في نزع معطفها.

نادت دوللي: «حاولت إقناع أوسكار بتكرار ذلك العناق ولكنه قال إنه لا يحب العناق في العلن».

نظر أوسكار إلى مارسيلا، ورد على دوللي: «أعتقد أن ستين يتمرن كثيراً على يد مخرجتنا المحترمة في السر».

تورد وجه ستين، فقهقهت دوللي:

ـ عرفت الآن لماذا تقدم في العناق!

قال أوسكار: «مارسيلا أريد محادثتك».

أشار إلى الباب، فطلبت من الفرقة التجمع على أرض المسرح، ومراجعة المشهد الثاني. ثم خطت بأوسكار إلى الخارج، حيث وقفا في شرفة المدخل. كان النور منطفئاً ولكنها مع ذلك استطاعت رؤية قسمات وجهه القاسية ورؤية الانتقاد في عينيه.. إذن، لم يسامحها حتى الآن على ما فعلته به.

كانت تصرفاته فظة.

ـ لن أبقى الليلة. جئت فقط لأراك من أجل الغد، تعرفين أننا مسافران

بعد الغداء بسيارتي.

دست رداً على فظاظته الحدة إلى صوتها:

ـ لم أكن أعرف.. وعرفت الآن.

يبدو أنه فهم الرسالة، فأصبح أكثر فظاظة:

ـ ستحتاجين إلى ثياب ملائمة لمدة ثلاثة أيام.. حجزت في الفندق غرفتين منفصلتين.. كانت إحداهما لجانيس والأخرى لي.. تدركين أنك توافقيني على أنك سكرتيرتي لا زوجتي.

ردت بهدوء بارد: «وهل أنا بحاجة إلى من يذكرني بذلك؟ أم تراك تقول ما تقول بغية إزعاجي؟ ربما تريد مني استخدام اسمي قبل الزواج أثناء السفر تجنباً لإساءة فهم طبيعة علاقتنا».

نظر إليها بحدة، ثم فتح الباب الخارجي تاركاً للريح الحرية في الدخول.

* * *

لم يتناول أوسكار الغداء مع الآخرين في اليوم التالي. عندما أنهت مارسيلا طعامها، سألت فراتك عن مكان أوسكار فقال إنه لا يشعر بالجوع.

عبست مارسيلا ونظرت إلى ساعتها.

ـ علي ملاقاته أمام مدخل المكتب بعد نصف ساعة.

كانت بانتظاره في الردهة عندما نزل. بدت عيناه مثقلتين ووجهه شاحباً وكأنه مريض، ولكنها مضطرة لإخفاء قلقها بل لن تجرؤ على الاستفسار عما يعاني.

مضى وقت طويل وهو صامت.. فتساءلت ألم يسامحها على ما فعلت به؟ عندما لم تعد قادرة على تحمل صمته سألته:

ـ متى نصل أوسكار؟

ـ في المساء الباكر.. العشاء في السابعة.. وبدءاً من الثامنة وصاعداً

هناك حفل استقبال للمشاركين في المؤتمر وزوجاتهم.

ـ لكنني سكرتيرة، ولست مدعوة؟

اعتقدته سيتجاهل سؤالها، لكنه رد أخيراً:

ـ أشك في أن أحضر الحفلة.

مضى الوقت وما زال يلوذ إلى الصمت. أمام أحد مفترقات الطرق الرئيسية سألته:

ـ ألست جائعاً أوسكار؟ لم تتناول غداءك.

ـ وهل هذا تلميح إلى رغبتك في التوقف لاحتساء الشاي؟

ـ لا.. ليس تلميحاً بل سؤالاً حقيقي.

ـ على أي حال، ستتوقف في المقهى القادم المناسب. والرد على سؤالك «الحقيقي» لا لست جائعاً..

بدا وكأنه يكره نفسه على هذا الاعتراف، فاهتمامها العفوي انتقل إليه، فأزعجه.

ـ لا تتصرفي فجأة كزوجة مهتمة بزوجها.

سحبت عدة أنفاس ثم قالت:

ـ اسمع أوسكار، فلنخرج كل ما بنفوسنا ولننته.. لم أشأ المجيء معك. لقد وضعني السيد مولدون تحت الأمر الواقع. اسمع أنا معك على أساس أنني سكرتيرة لا زوجة فهلاً كنت مهذباً معي على الأقل من أجل هذا السبب. لا أحالني قادرة على الاستمرار على هذه الحال مدة ثلاثة أيام.

بدا كلامها توسلاً وهو في الواقع توسل.

واجه كلامها بالصمت.. إذن كل شيء مات مع حبه حتى تعاطفه. كان الظلام قد أنزل سدوله عندما توقف أمام مقهى على الطريق.

ـ هيا.. أخرجي. سنتناول الشاي الذي تريدين.

في المقهى، غاص أوسكار في الكرسي، وكأن ساقيه لا تتحملان ثقل جسده، عندئذ تأكدت مارسيلا أن هناك ما يزعجه. شرب الشاي وتناول معه قطعة بسكويت ولكنه ترك نصفها. في السيارة، بدا مجدداً وكأنه يقوم

بجهد كبير ليتماسك، فشعرت بالخوف عليه.

ـ أوسكار.. دعني أقود.

شد نفسه: «عمَّ الظلام لذا من الأفضل أن أتابع المسير».

ثم نظر إليها، وسرّها أن الظلمة منعته من رؤية قلقها:

ـ أتريدين القيادة حقاً؟

سرعان ما ترجلت من السيارة وما لبث أن ترجل هو. في تلك اللحظة لم تستطع منع نفسها من مد يدها لتساعده. استقر في المقعد الآخر، وأغمض عينيه، طالباً الراحة.

ـ آسف لهذا.. أحس بتعب رهيب كنت أقاومه طوال النهار، ولكنه بدأ يربح المعركة. أنت لا تحبين القيادة ليلاً.

إذن يتذكر! حاولت إبعاد النظر عن الموضوع كمزحة:

ـ أنا سائقة جبانة، المشكلة أن مخيلتي تشب أمامي وتقعد على مقدمة السيارة وتزعجني بتصوير كل ما قد يحدث في ما لو ارتكبت أقلّ هفوة.

شغلت المحرك، فقال لها بصوت ملؤه النعاس:

ـ لن ترتكبي غلطة فأنت سائقة ماهرة.. أتذكر عندما بدأت أعلمك..

وتلاشى صوته وغفا ونام.

تذكرت في أثناء المسير أنها لا تعرف الطريق.. وأشار عداد الوقود إلى أنه بحاجة إلى تعبئة، فتوقفت في المحطة التالية واشترت الوقود. ولكن أوسكار لم يستيقظ. أبعدت مارسيلا السيارة عن الطريق وأخرجت خريطة من جيب الباب لتدرس المنطقة. ولكن ذلك لم يجد نفعاً.

عندما طوت الخريطة اصطدمت يدها بذراع أوسكار الذي فتح عينيه ليجد النور مضاء في سقف السيارة. اعتذرت مارسيلا لأنها أيقظته، فنظر إليها وكأنها غريبة.. بدت عيناه وكأنهما غير قادرتين على التركيز السوي وكانت وجنتاه حمراوين فمدت يدها تتحسس جبينه ولكنه أرجع رأسه متوتراً.

ـ إنه تأثير الطقس.. لا تفتعلي الضجة.

نظر حوله وقال: «لماذا توقفت؟»

أخبرته، فأضاف:

ـ ظننتك تعرفين الطريق. من المفترض بك أن تعرفي فأنت سكرتيرتي.

كبحت ردها الغاضب: أرشدني فقط إلى وجهتنا.

ـ سأتولى القيادة بنفسي.. الطريق معقدة على شرحها لك.

ـ لا أوسكار.. يجب ألا تقود لأنك لست معافى.

فتح الباب وحاول الوقوف ولكنه عاد إلى مقعده متهالكاً.

ـ حسن جداً.. ولكنني مضطر للبقاء مستيقظاً لأدلك.. أيقظيني إذا نمت ثانية أنا لا أمزح بل آمر.

لم يكن لديها الوقت لتتذمر من فظاظته.. إذ احتاجت إلى كل ما لديها من تركيز للقيادة ولإتباع توجيهاته. عندما توقفت أمام الفندق الذي سيمضيان فيه ثلاثة أيام، كان عليها أن تتجاوز إرهاقها وتتوجه إلى المشكلة التي كانت تستحوذ على فكرها وتتغلب على ما عداها. وهي كيف تقنع أوسكار بأنه مريض جداً وأنها لا تستطيع تركه وشأنه، فمن الضروري أن تكون إلى جانبه أو على مرمى منه ليستطيع مناداتها متى احتاجها.

ـ ابق هنا أوسكار.. سأتأكد من الحجوزات.

لو أقنعته بالبقاء حيث هو لاستطاعت أن تطلب من موظف الاستقبال تغيير غرفتيهما ليكونا متلاصقين.. ولكن أوسكار لم يتراجع وما قبل الدعم الذي قدمته إليه. حين وصلا البهو الشديد الإضاءة، رأته بوضوح، وصدمها مظهره.

تمتمت: «يجب أن يراك طبيب أوسكار».

ولكنه تجاهل اقتراحها، فقالت: «سأحاول تغيير غرفنا».

وقبل أن يرد، كانت تشرح الموقف لموظفة الاستقبال. قالت للمرأة هناك:

ـ زوجي مريض، وقد جئت معه إلى المؤتمر عوضاً عن سكرتيرته.

وصل أوسكار إلى مكتب الاستقبال وغاص في كرسي قربه، ووضع رأسه بين يديه. نظرت المرأة إليه بإشفاق وسألتها الموظفة: ما اسمه؟

بعدما ذكرته لها ألقت المرأة نظرة على دفتر الحجوزات:

- واحدة في الطابق الأول وأخرى في الثاني.

نظرت إلى أوسكار الفاقد النشاط.

- أوه.. يا إلهي.. أيمكن.. أمن الممكن تغيير الحجز وإعطائنا غرفتين متلاصقتين؟

هزت الموظفة رأسها: «لا أستطيع فلدينا عدد كبير من النزلاء».

عادت إلى اللائحة مجدداً: «ألغي حجز غرفة مزدوجة السرير».

ارتبكت مارسيلا، فسألت: «أوسكار، لا بأس في هذا؟»

- شرط أن يكون فيها سريران.

تورد وجه مارسيلا أما المرأة فقالت إن فيها سريرين.

رد أوسكار نافد الصبر: «أجل، أجل. مع أنني لا أرى حاجة..»

نقلت المرأة تعاطفها إلى مارسيلا تشفق بصمت بسبب هذا الزوج السيء الطباع. وأعطت مارسيلا المفتاح.

في غرفة النوم، غاص أوسكار في أحد السريرين متهالك الجسد. ولكن صوته كان حاداً وهو يقول:

- أكنت مضطرة لرمي نفسك عليّ؟

لا شك أن هناك بقية باقية من التعقل فيه لم يسلبه المرض منه:

- ولكن أوسكار.. اضطررت لهذا.. أنت مريض.. وما زلت زوجتك.. لهذا فمن..

- أجل.. أجل.. أعيدي النغمة القديمة عن الواجب الزوجي..

أمسك رأسه متخللة أصابعه في شعره الكث. رفع رأسه إليها فجأة:

- هل نسيت تلك الورقة التي وقعناها معاً لانفصالنا القانوني؟ إنها تحلك من كل واجب نحوي.. أنت غير مضطرة للعناية بي.. لا «في السراء ولا في الضراء».

- لكن أوسكار.. ما أعطيك إياه من وقتي أو اهتمامي أو عاطفتي فأنا أمنحك إياه بإرادتي.

رفع رأسه، ينظر إليها بطريقة مهينة:

- صحيح؟.. وماذا تنوين منحي الليلة؟

لقد وقعت في فخ كلامها.. لقد جلبت على نفسها الإهانة.

قال وهو ينزع معطفه ليتمدد على السرير:

- من الأفضل أن تنزلي إلى العشاء.

هز رأسه، فأكملت: «عليّ أن أبدّل ملابسي. هل من مانع؟»

أجبر نفسه على الضحك:

- وهل أعترض على رؤية امرأة تنزع ثيابها؟

فتشت في حقيبتها، وأخرجت فستاناً جذاباً ذا لون أحمر قان ارتدته، ثم مررت مشطاً في شعرها ترجعه إلى الوراء وتشبكه بمشبك، وبعد ذلك وضعت أقل قدر ممكن من الزينة.

كان أوسكار في غاية الهدوء حتى ظنته نائماً.. فدنت منه بهدوء، آملة أن تنتزع حذاءه بدون أن توقظه. ولكنه لم يكن نائماً ومع ذلك سمح لها بأن تنزع حذاءه، وتلقت تمتمة «شكراً» منه.. انتقلت إلى ربطة عنقه، ولكن يده وصلت قبلها.. ابتسم ولم يكن في ابتسامته سخرية.. وقال هامساً:

- هل لديك خطط من أجلي وأنا في حالة العجز هذه؟

لو أنه صاح بها لتحملت صياحه، ولكن لطفه الساخر، اخترق دفاعاتها..

عبس عندما رأى دموعها:

- إن بكيت ظننت أنني على وشك الموت أو أن عندك تجاهي بقية باقية من العاطفة. وكلا الأمرين غير صحيح.

أغمض عينيه ثانية:

- من الأفضل أن تنزلي إلى العشاء.. وعندما تخرجين سآوي إلى الفراش. وقبل أن تسأليني أقول لا أريد طعاماً.. أبداً.. فلا تبدئي

الجدال.

بدت قاعة الطعام الكبيرة مكتظة بالرجال أما النساء الأنيقات بينهم فعددهن قليل.. قرب النافذة المقفلة بالستائر جماعة من الشابات يجلسن حول طاولة مستديرة كبيرة.. إنهن السكرتيرات.. لولا أنها حجزت على أنها زوجة لأوسكار، لكان من المتوقع أن تنضم إليهن.

لم تستمتع بالطعام رغم روعته.. إذ سلبها التوتر شهيتها.. وتساءلت كيف ستشغل نفسها في سائر الأمسية.

حينما عادت بعد العشاء إلى غرفة النوم وجدت أوسكار في الفراش متمدداً ورأسه على الوسائد، ثيابه على الأرض. التقطتها مارسيلا آلياً تطويها وتضعها على الكرسي.. أخفض الورقة المطبوعة التي كان يقرأها يراقبها.

ـ ماذا أنت الآن؟ زوجتي.. خادمتي.. ممرضتي.. أم سكرتيرتي؟

في لهجته نفاد صبر ممزوج مع شيء من الإذعان:

ـ حسناً، بما أن الخادمة أو الممرضة أو السكرتيرة لا تتشارك غرفة النوم معك، فأعتقد أنني الآن زوجتك.

نظرت إلى الأوراق المرمية فوق السرير:

ـ أيجب أن تعمل؟ يجب أن تستريح!

هز رأسه ببطء: «أجل.. أنت قطعاً زوجة.. وزوجة كثيرة التقيق».

تلاشت ابتسامتها، وفتشت في كيس المشتريات:

ـ أعتقد أن عليك على الأقل أن تتناول بعض الحليب.

هز كتفيه: إذا كنت مصرة، إنما بدون طعام. فابعدي هذا البسكويت.. هل كان عشاؤك لذيذاً؟

ـ أجل.. شكراً لك.

صبت الحليب في كوب قدمته له، شربه كله وأعاد الكوب الفارغ إليها.

ـ هل كلمت أحداً؟ أعرف أشخاصاً كثيرين هنا.

ـ رأيت مهندسين كثيرين. لكنني لم أشعر بميل للحديث.

ـ ألم تقدمي نفسك إذن؟

سألته بحدة: بأية صفة؟ سكرتيرتك؟ أكاد لا أستطيع تقديم نفسي كزوجة لك.. لأنك أصررت قبل مجيئنا أن تكون هويتي مجهولة.

ـ لكن، يجب الكشف عنها الآن.. أليس كذلك؟ لا يمكنني الاعتراف بأنني أنام مع سكرتيرتي.

قالت بجفاء: «آسفة على هذه الورطة التي ورطتك فيها».

أراح رأسه على الوسائد: «وأنا كذلك».

كانت على وشك أن ترد عندما لاحظت أن التعب الذي يجاهد مقاومته قد بدأ يتغلب عليه، فحاولت قدر إمكانها إبعاد القلق عن صوتها:

ـ أوسكار.. يجب أن تنام.. لست على ما يرام.. مهما ادعيت العكس.

ـ لقد أصبت بذلك الشيء اللعين الذي يسمونه «انفلونزا الأربع والعشرين ساعة».. فتوقفي عن القلق.. وانزلي إلى الطابق الأرضي.. لن أحمل اهتمامك طوال الليل، هذا دون الاضطرار إلى تحملك الآن أيضاً. تصرفي كسكرتيرة قديرة واتركيني أتمّ عملي.

توجهت نحو الباب محبطة.

ـ مارسيلا!

أدارت وجهاً لا حياة فيه نحوه:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ إن احتجتني تجدني في الصالون فلن أذهب إلى التجمع الاجتماعي الذي قلت إنهم سيقيمونه، لكن لا تقلق، سآتي بين الحين والآخر لأسترق السمع كسكرتيرة مخلصة.

قبل أن يتمكن من التلاعب بالجملة الأخيرة، تركته.

كانت السهرة طويلة لم تحدث فيها أحداً، رغم النظرات المهتمة المصوبة نحوها. اتخذت لنفسها مقعداً في زاوية، وظلت فيه حتى كادت تغفو من التعب إذ لا تريد أن يقول لها أوسكار مجدداً إنها تقف في طريقه.. ثم

سارت في الممر المظلم البارد إلى غرفة النوم. كان النور مطفأ وأوسكار نائم، تسللت إلى الداخل ثم أغلقت الباب بهدوء ولكن أتاها صوته:

- أنا مستيقظ.. أضيئي المصباح قرب السرير إن أردت.

- آسفة على الإزعاج.

- لم تزعجيني.

كان المصباح قرب السرير مظللاً جيداً. ولكنه في ظلام الغرفة أعطى شعاعاً كنار على رأس جبل..

عندما كانت تخلع فستانها تذكرت بوضوح مؤلم ليلتهما الأولى وخجلها أمامه.

ولكن التوتر الذي أحست به كعروس شابة عاد إليها مجدداً..

دخلت إلى السرير.. لكنها تأخرت كثيراً حتى تغفو.. مع أن نومها كان متقطعاً.. في ساعات الفجر الأولى استيقظت على ندائه لها.. نهضت عن السرير تتحسس طريقها بمساعدة ضوء القمر لتجتاز المسافة إلى سريره.. امتدت يدها إلى جبينه فإذا هو ملتهب.

- ماذا تريد أوسكار؟

- لا شيء.. اذهبي عني.

- لكنك ناديتني.. أنت محموم.. يجب أن أعطيك شيئاً. إن لم تتجرع ما يخفض حرارتك، فستسوء حالك ولن تتمكن من إلقاء خطبتك التي انكببت على كتابتها الأسبوع الماضي.. وسنكره هذا، معاً.. أليس كذلك؟

استوعب الجملة الأخيرة ولكنها أتت النتائج المرجوة فأخذ أوسكار منها الدواء، ونهل من الكوب الذي قدمته له. ثم ارتدّ عنها مجدداً:

- عودي إلى الفراش واتركيني وشأني.. بالله عليك ابتعدي عني.

عادت إلى فراشها قلقة. ولكن النوم جافاها مرة أخرى.. أليس هناك طريقة لتحطيم دفاعاته؟ بالطبع هناك طريقة.. لكن الطريق أمامها غير مفتوحة، فماريون هي الوحيدة التي تملك الخريطة..

تحرك أوسكار فتنبهت حواسها.. تحرك ثانية ولكن كان في صوته هذه

المرة ألم.

- مارسيلا.. أريدك.

قالت بصوت ملؤه الصدمة: «ولكن أوسكار..»

رد بنفاد صبر: ليس كما تظنين.. يا الله يا امرأة! أنا مريض، أحتاج إلى المواساة، لا إلى شيء آخر. دعيني أضمك مارسيلا. أليس لديك رحمة؟ أنت امرأة، وما زلت زوجتي..

وتقلب في فراشه غير مستريح.

دنت منه وقلبها يخفق بشدة وساقاها واهنتان. رفعت الغطاء وأصبحت في جواره. تحرك قليلاً يوسع لها مكاناً في السرير الضيق ثم التفت ذراعاه حولها.. سمعته يتنهد في شعرها، وما لبثت أن سمعت كلمة واحدة «شكراً» قبل أن يسترخي جسمه.

ستخف الحمى الآن بالتأكيد.. إنه يتنفس بسهولة، وهذا أول دليل على أن ميزان حرارة الجسد يبرمج الحرارة.

في البداية بقيت متشنجة ولكن عندما ازدادت أنفاسه عمقاً، استرخت بدورها وانضمت إليه تاركة حبها له يجتاحها فكراً وجسداً.. إنما هذا لا يعني شيئاً له، كان يحتضنها كطفل متعب يتمسك بدميته لتريحه في الظلام.

أخيراً نامت ثم استيقظت عند انبلاج الفجر متسائلة أين هي.. شعرت بصدمة لأنها تذكرت أن أوسكار قربها يحضنها. ومع بدء النور نظرت إلى وجهه فإذا هو ساكن غارق في النوم.

حبست أنفاسها لئلا توقظه، وتسللت من سريره وأعادت الغطاء إلى مكانه.. تحرك، واضطجع على الجهة الأخرى.

تسللت إلى سريرها مسرورة لأنها لم تزعجه. لن يتذكر أنه طلب منها مؤاساته. لقد غلبته الحمى وربما ظن أنه كان يحلم. ولو وجدها قربه في السرير فمن يعلم ما كان سيظنه؟

يبدو أنها نامت مجدداً، فحينما استيقظت، تحرك، فتركت السرير ودنت منه.

نظر إليها بضع لحظات، ثم أغمض عينيه، وكأنه لا يطيق منظرها، كان بارداً شاحباً.. وهذا دليل على أن الحمى غادرته ليلاً.

قالت: «تبدو أفضل حالاً أوسكار.. أتشعر بالتحسن؟»

ـ أجل شكراً لك، سأنهض لتناول الفطور.

كان صوته بارداً أيضاً.

ـ إنما لا يمكنك ذلك!

فتح عينيه مجدداً، فشاهد قلقها ولكن قلقها ذاك جعله أكثر تصميماً، أدار لها ظهره وقال:

ـ لا أستطيع؟ حاولي منعي.

ارتدت الروب الذي جلبته معها. ثم أخذت منشفة وحقيبة اسفنجية وخرجت إلى الحمام.. عندما عادت إلى غرفة النوم متوردة منتعشة وجدت أوسكار مرتدياً ملابسه، وجالساً في المقعد قرب طاولة الزينة.. لم يرفع رأسه عندما دخلت، بل تابع قراءة الأوراق التي على ركبتيه.

ارتدت مارسيلا ثيابها على أن يكون مشغولاً بعمله فلا يلاحظها. ثم جلست إلى كرسي طاولة الزينة مقابل المرآة، استعداداً لماكياج وجهها.

قال دون أن يرفع عينيه:

ـ أشكر لك تضحيتك ليلاً.. أقدّر لك هذا.

إذن، فهو لم ينسَ، لقد كان واعياً ولم يأت طلبه بسبب الحمّى..

ـ أدرك أنك تهربت مني حالما تمكنت دون إزعاجي.

ـ لم يكن الأمر هكذا.. أوسكار.

كيف تشرح له!

قاطعها: «حسناً.. وفري عليّ سرد التفاصيل. أقدر لك مشاعرك. لا تقلقي، لن يتكرر هذا مرة أخرى. لن أستغل طيبتك مرة أخرى».

وضعت الماكياج آلياً.. فراقبها بابتسامة ساخرة.

ـ مصممة على تمثيل دور جيد أليس كذلك؟ دور زوجة المدير الشاب المنطلق، المخلصة، الوفية، المكرسة نفسها لتقدم زوجها.. بالتركيز على

جاذبيتها، وبهذا تزيد من فرص ترقيته.

تغاضت عن سخريته وقالت بتحد:

ـ إذا أردت أن تنكرني، فهيا.. حالما ننزل إلى الفطور، هذا إذا كنت قادماً..

ـ أنا قادم.

ـ سأتركك إذن وأنضم إلى مائدة السكرتيرات.

أخفض رأسه مجدداً إلى أوراقه: «ستجلسين معي».

ـ أنا جاهزة.

كانت خطواته بطيئة على سجاد الممر. من الواضح أنه لم يستعد عافيته، كما يظن.

سرعان ما تعرف إليه الموجودون وأحيط بدائرة من المبتسمين.. قدم لهم مارسيلا.

قبل التحرك إلى قاعة المؤتمر، عادت مارسيلا وأوسكار إلى غرفة النوم، وغاص أوسكار في المقعد.. لقد زالت الحمى عنه، لكنها لم تخفف قبضتها عنه.. جلست مارسيلا على السرير وقالت مقترحة:

ـ لماذا لا تطلب من أحد المهندسين إلقاء الخطاب نيابة عنك؟.

رد متعباً: «ولماذا لا تنوبين أنت عني؟».

شهقت مرعوبة: «لا، لن أقف على المنصة لألقي أمام كل ذاك الحشد خطاباً علناً».

ـ ترين أن حالتي لا تسمح لي بأن ألقي خطابي. لقد جئت معي على أساس أنك سكرتيرتي، لذا، أعتقد أنك الخيار الوحيد أمامي ولكن إن كنت لا تملكين الشجاعة الكافية..

صاحت: «شجاعة؟ أنت لا تراعي مشاعري، أتلمح إلى أنني جبانة؟ أيجب أن تكون كريهاً هكذا؟»

بذل جهداً ليقف، ووضع يده على ظهرها:

ـ آسف.. سأحاول مرة أخرى.. سأستخدم سحري، عندئذ لن

ترفضي طلبي.

ارتفعت يده إلى وجهها، وشاهدت ابتسامة مؤثرة تتلاعب على شفتيه.. وأكمل:

- لماذا لا تكونين السكرتيرة الجميلة الكفؤة كحالك وتنسى أنك زوجتي مؤقتاً.. اقرأي خطابي أمام الحاضرين. أعرف أنك قادرة على هذا، أنا أثق بك كل الثقة.

ابتسمت: «إن أردت ذلك حقاً أوسكار افعل ما تريده».

تنهد ثم ضغط على كتفيها قبل أن يبتعد.

- أحمد الله لأن «سحري» لم يفقد قوته.

في قاعة المؤتمرات، أرشدا إلى مقعديهما في الصف الأمامي. سمحت مارسيلا لنفسها بالنظر إلى الحضور، وما إن شاهدت الحشد الكبير من المهندسين والمديرين حتى خافت من المحنة التي ستواجهها. ويبدو أن أوسكار أحس بخوفها إذ أحنى رأسه إليها هامساً:

- ماذا يقلقك؟ إن تعب الرجال من الإصغاء إلى أفكاري، فلن يملّوا من تأمل جاذبية المرأة التي تخطب فيهم.

تعرف أن الغرض من إطرائه تعزيز ثقتها بنفسها ولكنها مع ذلك ابتسمت له بامتنان.

وقف رئيس المؤتمر ليعلن للمستمعين أن الخطيب التالي يجب أن يكون السيد أوسكار بلووم، ولكنه لسوء الحظ، غير قادر على إلقاء خطابه لذا ستنوب عنه زوجته الفاتنة التي أقدمها بكل سرور للحاضرين، السيدة أوسكار بلووم.

تركت مارسيلا مقعدها، وصعدت الدرجات القليلة. توقف التصفيق وعندما تجرأت على رفع رأسها عن الأوراق، رأت الوجوه مهتمة مترقبة.. وسعت يائسة بين بحر الناس فرأت زوجها الذي كان في ابتسامته تشجيع لها، وشيء آخر، قد يكون نوعاً من الفخر، لكنها استمدت الطمأنينة من دعمه الصامت، وقامت بجهد فائق للتغلب على توترها.

تكلمت بوضوح وما إن تعاظمت ثقتها بنفسها حتى تعامل لسانها بسهولة مع الجمل التقنية التي بين جنبات الأوراق. في النهاية، لم تشك في أدائها إذ تلقت أطول جولة من التصفيق ذلك الصباح.

رجعت إلى مكانها متوردة فمال نحوها هامساً: «أحسنت».

حملت إليها هذه الكلمة أعظم مكافأة.

عملت في ذلك اليوم بشكل دؤوب، تسجل الملاحظات للنقاش وما إن حل المساء حتى كانت هي من تحس بالتعب بينما بدا أوسكار وكأنه قد استرد بعض نشاطه المعتاد، إذ راح يتحدث مع زملائه بنشاط.. كان الوقت متأخراً وتساءلت عما إذا كان يتعمد تأخير لحظة خلوهما.

أخيراً، عجزت عن الاحتفاظ بمظاهر التمدن الذي كانت تمارسه طوال وقت العشاء، فسألت أوسكار عما إذا كان يعارض إن ذهبت لتنام.. تظاهر بابتسامة محبة أمام أصدقاءه.

- بالطبع حبيبتي.. سألحق بك سريعاً.

كانت على وشك أن تغفو عندما دخل إلى الغرفة. أزعجها، لكنها حاولت ألا تدعه يعرف هذا.. بعدما اغتسل شعرت به يرفع الأغطية، ويندس تحتها متنهداً.

تمتمت: «تصبح على خير أوسكار».

رد بحدة: «ظننتك نائمة.. تصبحين على خير».

أزعجتها لهجته التي جعلتها غير قادرة على الاسترخاء.. قاومت دموعها، وتقلبت بقلق في فراشها.. سمعت سؤالاً مخنوقاً:

- ما بك؟ بالله عليك اهدئي!

ردت تدير وجهها إلى الوسادة لتخفي ارتجاف صوتها:

- آسفة.. أنا على الأرجح متعبة تعباً يجعلني غير قادرة على النوم.

أرادت أن تقول: الليلة أنا بحاجة للمواساة.. لماذا لا أطلب منه المجيء إليّ، كما جئت إليه ليلة أمس؟

ساد صمت قصير متوتر. ثم أصبح هو قلقاً.. أضاء المصباح قرب

السرير، وذهب إلى المغسلة، ليشرب بعض الماء. . كانت عيناها مغمضتين، ولكنها أحست به يتوقف قرب سريرها، فخفق قلبها، وتوتر جسدها. ارتفعت أهدابها فتشابكت نظراتهما.

- أوسكار؟

انطلقت الكلمات بتوق كتوق ذراعيها إلى ضمه، كان في صوتها سؤال اعتبره خوفاً فتغير تعبير وجهه وقسا. بعد ذلك ارتد على عقبيه عائداً إلى سريره.

تركت بسبب عدم تساقط الدموع تتساقط بصمت حتى انجرفت في نوم عميق.

في الصباح التالي رمت الغطاء، ونهضت عن السرير. راقبها لحظة، ثم اتجه إلى الباب قائلاً إنه خارج «يتنفس الهواء النقي». كان بمكنه أن يضيف: وللابتعاد عنك.

قال لها وقت الفطور: «سنسافر بعد الغداء».

- لكن المؤتمر لن ينتهي قبل الغد.

- حتى الظهر سيكون أهم جزء من المؤتمر قد انتهى. لن أمضي ليلة أخرى هنا.

لم يضف «معك» ولكن الكلمة كانت موجودة.

دون كلام. . بعد الغداء انطلقا ولم يتوقفا إلا في البلدة قبل الاتجاه شمالاً. .

قال لها: «وعدت أن أشتري هدية لروبرت، هل تأتين معي؟»

أوقف السيارة أمام مركز تسوق، فأجابت بصوت جاف:

- لا. . شكراً لك.

- ماذا عن الحبيب ستين، ألا يستحق هدية؟

ردت على سؤاله بالصمت. . فهز كتفيه. . عندما عاد كان يحمل كيسين منفصلين. . قال وهو يضعهما في حضنها:

- واحد لروبرت، والآخر لأمه.

وضعتهما في الخلف بسرعة، وكأنهما يحتويان على المتفجرات.

ابتسم لحركتها: «ما بالك؟ منزعجة لأنني لم أشتر لك شيئاً؟»

لم ترد عليه فأضاف: «انك معي كسكرتيرة وهذا يعني أن المؤسسة ستدفع لك بدل ما قمت به من عمل. وهناك أمر آخر، لا يشتري الرجل هدية لزوجته «المهجورة» حتى ولو نامت معه في الليلتين الأخيرتين.

صاحت به: «تعرف أنك لا تقول الحقيقة إذ لم أفكر في الحصول على هدية منك».

رد بصوت هامس: «أعرف أنك كاذبة».

عندما توقف خارج منزلها أخرج حقيبتها من الصندوق، وحملها إلى الباب الأمامي قائلاً:

- أريد هذه المذكرات مطبوعة في أسرع وقت ممكن مارسيلا. يجب أن أدرسها بعناية قبل تقديم تقريري.

قالت إنها ستبذل ما بوسعها ثم حثته:

- لا تأتي إلى العمل غداً أوسكار فما زلت متعباً وإن ظننت العكس. . أما فيما يتعلق بالتمرين مساء غدٍ فلا تلق بالاً فبمقدور كولمان أن يتدبر أمره مدة ليلة واحدة.

بدلاً من أن يشكرها على تفكيرها فيه، قال بصوت لاذع.

- أشكر لك قلقك المؤثر، ولكنني ذاهب إلى العمل غداً. . لا تقلقي على صحتي. بل لا تستمري في تمثيل دور الزوجة المخلصة. . لقد عدنا إلى وضعنا العادي، وليتك تعلمين مدى ارتياحي.

* * *

١٠ ـ حبيبي مات

كان التمرين على المسرحية قد بدأ عندما وصل أوسكار.. وقف إلى جانب مارسيلا للحظات حتى توقف التمرين من أجل تبديل الأزياء.

قال: «آسف على تأخري».

رفعت بصرها إليه، وقد انقلبت ابتسامتها إلى تقطيبة قلق، فقد بدا متعباً ومرهقاً حقاً.

ـ هيا.. قوليها.. لقد قالتها لي امرأة هذا المساء، أبدو متعباً.

هوى قلبها كما يهوي من يقع من فوق الدرج.. لقد زار صديقته وهو في طريقه إلى هنا!

ـ كان روبرت مغتبطاً بالهدية التي اشتريتها له.

ردت بحدة: «وأعتقد أن أمه رمت بذراعيها حول عنقك لتشكرك على هديتها».

سوّى ربطة عنقه بحركة متعمدة، وابتسم ببطء.

ـ يمكنك القول إنها فعلت هذا وأرادت مني البقاء للعشاء، ولكني قلت إني تناولت الطعام، وإنك تتوقعين حضوري.

ـ يؤسفني أن أعلم أن حياتك الخاصة قد تكدرت بسبب التزاماتك بي.

نظر إليها متأملاً: «سخرية؟ منك أنت؟ ما الذي يزعجك سيدة بلووم؟ أهي الغيرة؟»

تورد وجهها: «لا تكن أحمق».

ثم ابتسمت له: «أنهيت طباعة الملاحظات».

ـ كلها؟ يا الله! طالما قلت إن للكفاءة سكرتيرة واحدة اسمها مارسيلا بلووم.

قلدت كلامه: «إطراء؟ منك أنت؟ إلام تسعى سيد بلووم؟»

ضاقت عيناه: «لو كنت مكانك سيدتي المخرجة، لما سألت هذا السؤال».

تركها ليختفي وراء المسرح.

كان العرض هذه الليلة غير جيد فقد ارتكب الممثلون أغلاطاً كثيرة بمن فيهم دوالي.

دعكت مارسيلا صدغيها.. شاهد أوسكار الذي برز من الخلف الحركة فنادى:

ـ هيا جميعاً.. ابهجوا المخرجة بعرض أفضل لهذه الليلة.

استدارت مارسيلا إلى ستين: «هلا أتيت إلى منزلي لنراجع دورك مرة أخرى؟ كنت الليلة مرتبكاً قليلاً.. يجب أن تجتاز ذلك فليس أمامك إلا الليلة للعمل على ذلك».

نظر أوسكار إليها ساخراً، فيما ذهب ستين ليحضر معطفيهما، وهمس لها:

ـ أتدعين البطل إلى شقتك؟ وفي مثل هذا الوقت من الليل؟ ما الذي ستعملان عليه غير المسرحية؟

ـ لا تحكم على حياتي الخاصة كحكمك على حياتك الخاصة!

أخذت معطفها من ستين فارتدته، ثم اتجهت إلى الباب، بعيداً عن رد زوجها.

نظر أوسكار إلى ساعته وقال بصوت مرتفع:

ـ ما زال معي متسع من الوقت لزيارة ماريون.. أشك في أن تكون نائمة، إنما لا يهم إذ من الأفضل لو كانت نائمة.

لحقت مارسيلا بستين إلى الخارج تاركة الباب يغلق بقوة.

استيقظت مارسيلا في الصباح التالي خائفة إذ كانت تعاني من التوتر

منتديات ليلاس الثقافية

الذي يصاب به المخرجين ليلة افتتاح مسرحياتهم. لقد بيعت كل التذاكر للحفلتين وستحضر لمشاهدتها والدة ستين وخالته وماربون أيضاً على ما يبدو.

ذهبت إلى العمل بالباص، تاركة السيارة في الكاراج.. امتلأ بالركاب وما زالت هي غارقة في أفكارها. لم ترَ السيارة التي مرت إلى جانبها ولكن عندما سمعت اسمها، رفعت رأسها.

سألها أوسكار وهو يفتح الباب لها: «أين سيارتك؟»

ـ في المنزل، إنها تتأخر في الانطلاق عند أضواء المرور والمتعطفات وهذا أمر محرج.

ـ يجب أن ترسليها للتصليح.

ـ إنها قديمة جداً، وأتساءل إن كانت تستحق التصليح وإنفاق أي مبلغ عليها.

استقرت إلى الوراء في مقعدها:

ـ عندما كنت في الباص رأيت التلال عن بُعد.. منظرها جذاب مع أن الثلج ما زال يكسوها.

أغمضت عينيها:

ـ يجب أن أبتعد عن المدينة في أسرع وقت ممكن، وأذهب إلى المراعي مجدداً.. لن أنتظر حتى حلول الربيع.

ـ وماذا يجذبك فيها؟ المساحات المفتوحة؟

ـ ربما.. سأحاول أن أجد الفندق الذي أمضينا فيه شهر العسل.

ندمت على كلامها لأنها تعلم أنه سيسألها سؤالاً لن تستطيع الرد عليه.

ولكنه لم يسألها شيئاً، بل نظر إليها وقال:

ـ أخبريني متى ستذهبين فقد أرافقك. من يعلم أي سحر قد يؤثر فينا؟ وإن حمل إلينا الصلح فلا أظنه يدوم أكثر مما دام في المرة الماضية.

ردت ببرود: «بالتأكيد، خاصة بعدم وجود المقوّم الوحيد المهم».

ـ ما هو؟

ـ الحب.

دخل أوسكار إلى موقف السيارات ودخلا بصمت إلى المكتب حيث افترقا بصمت.

* * *

امتلأت الصالة وعمّ التوتر جميع الممثلين.

كانت جولي تركض من غرفة ملابس إلى أخرى، تهتم بالأزياء، والإشراف على الممثلين الذين يزبنون أنفسهم.. كل هذا يجري ما بين آخر نصائح مارسيلا وتيد مدير المسرح وتعليماتهما.

وكان أوسكار وكولمان، قد وضعا مناظر المشهد الأول في مكانه، وشرعا يستعدان لمناظر المشهد التالي. أما دوللي فكانت أكثرهم تماسكاً وقد ظلت تدور حول أوسكار طالبة منه إبداء إعجابه بها في هذا الماكياج الذي يظهرها أكبر سناً، وسألته ووجهها أمام وجهه:

ـ هل أنا كبيرة إلى درجة أن تتخذني صديقة؟

صدها أوسكار بلطف وصرامة:

ـ لقد تأخرت، سبق أن قلت لك إن لي صديقة!

ارتدت دوللي إلى مارسيلا، تتوسل إليها:

ـ هل لديه فعلاً صديقة؟

جاءها الرد الصريح الذي لا حياة فيه:

ـ أجل.. إنها هنا الليلة. واسمها ماربون.

ضحك أوسكار لمارسيلا، وقال لدوللي:

ـ إنها على حق. وهي ثرية وجميلة. أترين الآن يا دوللي الصغيرة أن لا فرصة أمامك؟.

ـ لو حاولت إغواءك فعلاً، لما أتيحت لك فرصة الفرار مني، ولما تمكنت من قول «لا».

ضحك أوسكار مستمتعاً بالنكتة:

ـ أنت على خطأ تماما . . أنا شخص مخلص، ولا أخذل أبداً المرأة التي أحبها.

ردت مارسيلا ببرود: «أشك في أن يكون لديك القدرة على حب امرأة . . أو الوفاء لها إن حدث أن أحببت».

ومضت عيناه، وواجه مارسيلا:

ـ وهل تتحدين ما أقول سيدتي المخرجة؟

قال كولمان: «الإضاءة جاهزة».

انضم إليهم بريح مارسيلا من رد عنيف على سؤال أوسكار . . ونظر إلى ساعته:

ـ ربع ساعة ونفتح الستارة . . صحيح مارسيلا؟ هل سترافقني أوسكار؟

جرى العرض الذي استقبله الجمهور بالتصفيق الحار وبسبب التصفيق الحار أعيد فتح الستارة ست مرات، وهذا ما أبهج الفرقة، وتبع ذلك صيحات تطالب بخروج المخرج . . خرجت مارسيلا تحت إلحاح الممثلين إلى المسرح بضع لحظات . . انحنت لهم فتصاعد التصفيق وبلغ حده.

شعرت دولي فجأة بالإحباط وذلك عندما رأت ماريون خلف المسرح، تنتظر أوسكار ليقلها إلى المنزل.

أحست مارسيلا بأن عليها كونها المخرج التحدث إلى ماريون، ولكن بادرتها الودود تلفت من جانب تلك المرأة برودا شديداً.

التفتت فرأت هاربيت وفرانك يقتربان منها. تلفت منهما هنئة ثم أشارا بحركة من رأسيهما إلى «الأرملة الثرية» وفهمت مارسيلا.

ـ أعرف . . حاولت التواصل معها ولكن . .

أنهت جملتها بالتظاهر بالرعدة فعلقت هاربيت:

ـ حاولت محادثتها وقت الاستراحة فتلقيت الاستقبال نفسه.

تمتمت مارسيلا: «يقول أوسكار إنها جميلة»

قال فرانك بصوت أجش: «ماريون «جميلة»؟ أين الجمال في امرأة

منحوتة من جليد؟ أظن أن زوجها مات نتيجة تعرضه الطويل لبرودتها القطبية! كيف يتحمل أوسكار ترفعها، بعد الدفء الحار في زوجته . . !»

وصل أوسكار مرتدياً معطفه . . وتوجه رأساً إلى ماريون. ثم لمح هاربيت وفرانك، فاصطحب ماريون إليهما . . ولكنها وقفت بعيدة وكانت عيناها الزرقاوان تقولان: أصدقاء أوسكار . . ليسوا أصدقائي!

* * *

كان عرض المسرحية الثاني أفضل من الأول، وكان الحضور أكثر حماساً وإعجاباً. عندما نزلت الستارة لآخر مرة أخذت دولي تدور وتعانق الجميع. ثم اختفى الرجال إلى غرف الملابس لإزالة الماكياج، وتغيير الثياب استعداداً للحفلة. وهذا ما فعلته النساء أيضاً.

خلعت مارسيلا بنطلونها وكنزتها . . ثم أخرجت من المشجب فستانها الذي أحضرته معها وهو الفستان الأسود الذي ارتدته في حفل عشاء المؤسسة السنوي. عرفت أنه سيثير تعليقات ساخرة من أوسكار، لكنها الليلة لن تهتم بآرائه. كانت تشعر بسرور عامر في داخلها بسبب نجاح المسرحية بعد أسابيع من العمل المضني.

جرت الحفلة على المسرح، والستارة مسدلة . . كانت الحركة والخطابات والقهقهات من حولها أشبه بالحلم بالنسبة لها وكأن المسرحية مستمرة بدون جمهور وبدون قصة، وكأن جميع الشخصيات موجودة في الخيال لا في الواقع.

ألصقت دولي نفسها بأوسكار الذي راح ينظر إليها نظرة بعيدة وكأنها غير موجودة.

قدم ستين كوب عصير آخر لمارسيلا، وعرض عليها سندويشاً، فقالت: «لم أتناول الشاي اليوم».

سمعها أوسكار فانضم إليهما، معلقاً:

ـ وأنا كذلك، وهذا ما يجعل منا شخصين جائعين على هذا المسرح.

حاولت عيناه اصطياد عينيها فانسلت كالسمكة مبتعدة.. لكنه لاحقها:

ـ أنت ترتدين هذا الفستان مجدداً.

نظرت إليه بحدة: «وماذا إن فعلت؟»

رفع حاجبه: «أتسعين وراء المتاعب؟»

ـ لا أدري ما تعني.

ـ تعرفين جيداً ما أعني.

تصرف كأن ستين غير موجود هناك.. فأزعج ذلك ستين الذي قال:

ـ أظنها رائعة في هذا الفستان.

أبعد أوسكار عينيه عن مارسيلا ونقلهما إلى مرافقها.

ـ أتعلم ستين.. أنت على حق. تبدو رائعة، خلابة في هذا الفستان.. إنه.. يثير رغبتي.

اقترب ستين من مارسيلا ليضم خصرها، مستثنياً بذلك وجود أوسكار الذي قال بلهجة حادة باردة:

ـ الطيور على أشكالها... أكمل المثل ستين.

وارتدّ لينضم إلى كولمان وخطيبته.

صدحت الموسيقى وارتفع الحديث لإخفاء صوتها.. وانتشر دخان السكائر في المسرح. وفرغت الأطباق، وجفت زجاجات المرطبات والعصير.

كان ستين غارقاً في نقاش عميق عن المسرحية مع ممثل آخر، وكانت مارسيلا بمفردها. سعت عيناها إلى أوسكار الذي كان يقف قبالتها في المسرح قرب الأنوار الخلفية.. ويبدو أنه شعر بنظرتها المصوّبة إليه فرفع عينيه إليها.

كان التصادم جسدياً.. تبادلا النظرات.. وتلاشت الأصوات، وابتعد الجميع. بدا وكأن هناك شخصيتين فقط تمثلان المسرحية الدرامية هي وأوسكار.. أطلقت أنفاسها، وعادت فحبستها ذلك أن أوسكار قد تحرك

شاقاً طريقاً ملتوياً بين الآخرين، نحوها.

وقف أمامها قائلاً بصوت هامس: «مرحباً مارسيلا».

كأنه يشاهدها لأول مرة ذلك المساء.. فترنحت إلى الخلف نحو الستائر سعياً إلى الدعم.. ولكنها لم تجد الدعم في ليونة الستائر.

قال همساً وهو يرفع كوبه إلى شفتيه:

ـ اشربي بعينيك الشفافتين، أستجب بعيني... ما تتمة هذا البيت مارسيلا؟

ردت بالرقة ذاتها:

ـ اترك لي قبلة على حافة الكأس ولن أطلب المزيد.

امتدت أصابعه ليرفع وجهها:

ـ مارسيلا؟

في سؤاله إلحاح.

تحرك الماضي في داخلها وانبعث إلى الحياة لانبعاث الربيع بعد شتاء طويل لا ينتهي.. لا تدري إن قالت «نعم» رداً على سؤاله ولكن لم يكن هناك حاجة للقول فالإجابة مسطورة في عينيها.

لم يعطها مجالاً للرد، إذ سرعان ما أصبحت بين ذراعيه.. كان مألوفاً جداً لها وغريباً في آن واحد. أحست بانقطاع أنفاسها، ولكنها سمعت من ينادي من بعيد وكأنه ينادي من صحراء. كانت دوللي تصيح:

ـ توقف أوسكار.. توقف!

لكنه لم يتوقف، فالتفتت إلى ستين:

ـ انظر ماذا يفعل ستين! افعل شيئاً، إنها فتاتك لا تتركه يسرقها منك!

في صوتها عذاب، لأنها تشاهد ما أرادته لنفسها يتسلل بعيداً عن متناول يدها، ولكن ستين وحده يعرف ما يجري.. ووحده يعرف مدى عجزه عن منعه.. لكن ذلك المنظر انتهى أخيراً.. قال كولمان وذراعه حول خطيبته:

ـ عرفت أنها أسرتك أوسكار.. لقد حذرتك.. لكنك لم تهرب.

ضحك الآخرون، وكأنهم يرحبون بمزاحه لإزالة الجو المتوتر.

قال أوسكار بحدة: «ارتدي معطفك مارسيلا سأصحبك إلى البيت».

في غرفة الملابس، وضعت معطفها، والتقطت حقيبتها. كانت ساقاها مرتجفتين، وأفكارها مشوشة. لم تدر هل السبب هو جو الحفلة الصاخب أم عناقه الذي ما تزال تشعر به.

عندما عادت إلى المسرح، كان أوسكار مستعداً للخروج.. لوّح الآخرون لهما متمنين لهما الحظ.

وحده ستين وقف بلا حراك تراقب عيناه المسودتان خصمه يفوز بالجائزة.

تمت الرحلة إلى شقة مارسيلا بصمت. اشتد التوتر بينهما، وعندما وصلا سارت أمامه، وفي غرفة النوم خلعت معطفها، واستدارت تواجهه. حاولت قراءة أفكاره من خلال تعابير عينيه ولكنهما كانتا عميقتين وكأن لا قرار لهما.

انتظرت وهي تتحمل نظراته التي مرت بها. امتدت ذراعاه، فرمت بنفسها إليهما بطواعية ورغبة وعدم قدرة على الرفض. تأمل وجهها المشرق كما يتأمل غطاس بحر عميق قبل أن يرمي نفسه إليه.

قال هامساً: «سأبقى».

شدها إليه، فازدادت التصاقاً به.

أصبح جسمها مذعناً له، لا أثر فيه للمقاومة. تحركت من جديد أحاسيس طال نسيانها، بعثت إليهما بهجة الذكرى، ومع مرور الوقت، ومع عودة حاجة كل منهما إلى الآخر تضاعفت سعادتهما، وأصبح فرحه فرحها، وحبه حبها وشغفه شغفها. كانت آخر فكرة طرأت على بالها قبل أن تستسلم كلياً: «ما زال يحبني».

تحركت مرة في الليل فوجدت ذراعيه حولها تبعثان إليها رضى عظيماً.

عندما استيقظت صباحاً كانت بمفردها.. لقد رحل، ولكن رحيله لم يقلقها.. اليوم هو السبت، وهو دون ريب عائد. اغتسلت وارتدت ثيابها ورتبت السرير وتناولت الفطور ثم غسلت الأطباق.

نظرت إلى المرآة فرأت امرأة ساطعة العينين منتشية النفس. لقد عاد أوسكار، وهي الآن تملك حبه كما لم تملكه قط، حتى أيام زواجهما الأولى.

دخلت إلى غرفة الجلوس ترتبها وهناك شاهدت الرسالة. كانت موضوعة أمام الساعة وفيها كلمات سريعة بسيطة: «مارسيلا.. شكراً للتسلية الليلية.. أنت تستحقين بالتأكيد المكافأة.. لقد رضيت الآن بشرطي، وبإمكانك الحصول على الطلاق الذي دأبت على المطالبة به.. ألهذا قبلت بعودتي؟». «أوسكار».

رمت الرسالة إلى الموقد بقوة وألم. ثم أغمضت عينيها وترنحت.. استخدمت يديها لتساعداها فسارت حول الأثاث حتى وجدت كرسياً تجلس عليه.. أحست بالسقم والذل فرغبت في الموت. ما شعرت به في أطرافها أشبه بمرض خطير قد لا تبرأ منه أبداً.

أمسكت رأسها تريد البكاء ولكن عينيها كانتا تحترقان بحيث لم يخرج منهما سوى النار.

تشققت شفتاها وجفتا وأصبحت أنفاسها قصيرة، وكأنها كانت تصعد درجاً لا نهاية له. كانت عيناها تريان بوضوح أما عقلها فكان مطفأ.

عانت بشدة من الصدمة التي استولت على كيانها كله، توهن أطرافها وتعطل عقلها وتشعل أنيناً في عينيها. أقنعت نفسها بأن عليها الابتعاد.. ستذهب إلى الريف وإلى التلال حيث ذلك الفندق الذي أمضيا فيه شهر العسل. لو استطاعت الوصول لعادت إلى الماضي ولاكتشفت أن السنوات الثلاث الماضية ليست سوى كابوس.

ارتدت كنزة صوف وسروالاً، وحذاء مرتفع الساق.. ثم ارتدت «الأنوراك» الذي ربطت قلنسوته تحت ذقنها.. الطعام؟ لا.. تكفيها زجاجة حليب. تسارعت حركاتها وكأنما لا وقت لديها لتضيعه. الماضي يناديها وليس عليها تركه منتظراً.

قابلت في الردهة السيدة كوسبي التي سألتها:

ـ ستخرجين باكراً عزيزتي؟

ردت مارسيلا بصوت مرتفع لا رنة فيه:

ـ أجل.. أجل.. أنا خارجة.. سأذهب إلى الريف.. لأجد..

لتجد ماذا؟ الماضي؟ لكن هذه المرأة لن تفهم.. لتجد فندقاً.. أجل هذا هو الرد!

ـ لأجد فندقاً.

عندما رأت نظرة المرأة المتسائلة سعت إلى لحظة تعقل، وقوّت نفسها بابتسامة.

ـ يجب أن أستنشق هواءً نقياً.. يجب أن أخرج من المنزل قليلاً.

حاولت السيدة كوسمي مجادلتها: «لكن الطقس بارد، وعاصف.. لو كنت مكانك لانتظرت يا حبي حتى الربيع الذي لن يطول قدومه».

في صوتها مرح ورقة، وكأنها تكلم شخصاً غريب الأطوار، أو طفلاً غير متزن، وهذا ما أخاف مارسيلا.. فهزت رأسها بعنف، وهرعت إلى سيارتها.

دار المحرك بعد المحاولة الثالثة، فانطلقت متوجهة إلى الريف. كانت السيارة تسير وكأنها تعرف طريقها، وتأخذ صاحبتها إلى وجهتها.

لاحظت الغيوم الملبدة.. ولكن المنظر لم يثر فيها ارتياكاً.

كان الجليد في كل مكان، ولو كانت مدركة لخافت منه، ولكن لم يعد للمخاوف العادية لها قوة التأثير فيها.. كانت مذهولة، شاردة الذهن وكأن الرجل الذي تحبه مات. ولكن ما حدث صحيح.. الرجل الذي تحبه بات غير موجود، الرجل الذي كتب تلك الرسالة، غريب.. غريب سادي مهين. ولهذا تهرب منه بحثاً عن الرجل الذي تزوجته. إنه هناك، فوق بانتظارها. هي متأكدة من ذلك.

قادت السيارة آلياً، قطعت السيارة أميالاً وأميالاً ووصلت أخيراً إلى الريف، وهناك خفّ السير بل انعدم تقريباً.. لقد وصلت إلى الثلج، إلى اللمسات البيضاء في الجبال البعيدة.. تلك الجبال التي كانت تبدو جذابة من نوافذ الباص.. وها هي الآن، مخيفة، باردة، غلالة بيضاء مطروحة على

الأرض العارية حولها.

امتدت الطريق كأنها شريط معدني بني.. كانت تجتذبها وتومىء إليها وتغريها نحو هدفها. تساقط الثلج في تلك اللحظة بلطف في البداية ثم بكثافة ولكن مارسيلا لم تلاحظ ذلك إذ كانت عيناها منصبتين على الطريق أمامها.

لم يخطر ببالها أن من الجنون متابعة المسير في مثل هذه الظروف.. بعدما تركت الطريق الرئيسية انحدر الطريق أكثر فأكثر بشكل خطير ولكن لم يكن يخلّ الخوف في قلبها مكانه. كان هدفها أن تجد الرجل الذي تزوجته في نهاية هذه الرحلة، وهذا ما نحّى كل المشاعر الأخرى.

أمامها أميال أخرى تجتازها. امتدت الطريق إنما في هذه المرة صعوداً وأخيراً أخذت تسير بشكل متواز مع قمم التلال التي بدت لها وهي في الأسفل، بعيدة جداً.

فجأة، واجهت الفندق. كان معزولاً.. حجارة جدرانه الخارجية شبيهة بحجارة الأرض التي تحيط به. وقفت أمامه فبدا أن لا حياة فيه. ثم أخرج طفل رأسه من وراء باب خشبي، ونظر إليها، ثم اختفى، ربما ليعلن عن وصول امرأة غريبة.

ظلت مارسيلا في السيارة بضع لحظات، تراقب هطول الثلج وهو يستقر على مقدمة السيارة.

فتحت باب السيارة وترجلت منها متوجهة نحو باب الفندق، الذي انفتح قبل أن تقرعه.. ابتسم لها وجه لطيف هو لامرأة. قالت المرأة مبتسمة، إنها دهشة لرؤية شخص هنا في مثل هذا الطقس السيء.. هل من خطب؟ عطل في السيارة؟ أم وجبة طعام؟

قالت مارسيلا: «رجل.. زوجي.. هل هو هنا؟»

وصفته كما كان قبل خمس سنوات.. عبست المرأة وقالت «لا، نحن لا نتوقع وصول أحد.. إلا بعض الباعة».

تغضّن وجه مارسيلا كطفل خاب أمله.. فتأثرت المرأة أكثر من ذي قبل.

ـ ادخلي عزيزتي.. سأقدم لك الغذاء، هل جئت من بعيد؟

ـ أجل.. اجتزت أميالاً وأميالاً.

ـ يجب ألا تقودي في مثل هذا الطقس الذي سيزداد سوءاً، في بعض الأحيان. ننقطع أسابيع عن العالم.. أدخلي وامكثي عندنا قليلاً.

قالت مارسيلا بصوت ثقيل:

ـ لا.. لا.. لا طعام.. شكراً.. يجب أن أعود..

كررت شكرها ثم قفلت راجعة إلى سيارتها لتبدأ برحلة العودة.

تكدّس الثلج فوق الجدران الحجرية، وهبط الضباب الكثيف منذراً بمزيد من الثلوج.

كانت ردة فعلها في حالتها الراهنة من بلادة الحس بطيئة إذ لم تشاهد الحمل الذي كان واقفاً في طريقها حتى كادت تدهسه.. فانعطفت بالسيارة بعنف، ولكنها انزلقت بعيداً حتى توقفت فجأة جانباً أما الحمل فهرب باحثاً عن أمه.

ضربت مارسيلا المقود بأصابعها الباردة المتشنجة ثم وضعت رأسها بين ذراعها على المقود طلباً للراحة. هذا هو الصمت الربيعي الأزلي يعمّ الأرجاء كلها.

بعد فترة وجيزة رفعت رأسها لتشغل المحرك ولكنه لم يستجب، حاولت ثانية فلم يستجب.

عاد إليها شيء من التعقل، فأدركت كم من الخطر إبقاء سيارتها في عرض الطريق.. مع أن من غير المحتمل أن تمر سيارة بهذا الطريق قبل ساعات طويلة. خرجت لتحاول دفع السيارة وقيادتها في الوقت ذاته. ولكن الثلج كان كثيفاً.. دارت حول السيارة وبداها في جيبيها.. فالبرد قارس. عادت إلى السيارة. ماذا تفعل؟ ليس معها غطاء أو دثار أو قفازات حتى وهي لا ترتدي إلا هذه الثياب التي لا تناسب أبداً هذه المرتفعات الباردة.

تذكرت الحليب الذي جلبته معها، صعدت إلى المقعد الخلفي فوجدت

الحليب، وشربته. ولكنه كان بارداً برودة جعلت أسنانها تلمع.

قوى تساقط الثلج وتكدست رقعه فوق السيارة حتى كاد يغطي النوافذ.. شعرت بأنها تموت.. وما أسهل الموت! فهو يبعدها عن بؤسها وتعاستها، دفعها شيء ما إلى الاستسلام للنوم. كانت تعلم أن عليها البقاء يقظة والتحرك دوماً ليتدفق الدم في عروقها ولكنها تجاهلت كل التحذيرات ورحبت بالنوم وبنتائجه بذراعين مفتوحتين.

* * *

١١ ـ الباقي من العمر لحظة

ضغط كوب على أسنانها المطبقة.. ورفعت يد رأسها قليلاً وتناهى إليها صوت يقول:

ـ اشربي.. حباً بالله.. اشربي!

اخترق بعض الشراب الساخن حاجز أسنانها، فجرى فوق لسانها ثم في حلقها.. حرقها فشهقت وسعلت تختنق، ثم قاومت للخلاص ممن كان يجبرها على الشرب رغماً عنها.

كانت على وشك الموت وكادت أن تحقق هدفها، والآن هناك من يعيدها إلى الحياة التي أرادت التخلص منها.. بدا على هذا الشخص كائناً من يكون الرضى لتجاوبها. شعرت به يبعد الكوب عنها ثم شعرت بيديه تدلكان جسمها، وبحذائها ينتزع من قدميها، وبكاحليها يتحركان، ومع ذلك لم تفتح عينيها. هناك من حملها إلى خارج السيارة وسار بها فوق الثلج قبل أن يضعها على سطح صلب، حيث دثّرها بغطاء ما ووضع وسادة تحت رأسها..

غاصت إلى الوراء واستلقت دون حراك.

ـ اشربي هذا مارسيلا.

جعلها سماعها لاسمها بهذه النبرة القاطعة ترفع رأسها فرأت على نور المشعل رجلاً. وما إن اقترب وجهه حتى انكمشت بعيداً. إنه الغريب الذي كتب تلك الرسالة، الذي دمر سعادتها، الذي جعلها ترغب بالموت.

وضع يده تحت رأسها.. كانت الحياة تعود إليها ببطء، فارتدت عنه.

قال لها: «هذا شاي مارسيلا.. إنه ساخن جداً سكبته من إبريق حافظ للحرارة. يجب أن تشربيه، وإلا لن تعيشي».

همست: «لا أريد أن أعيش».

ـ عزيزتي مارسيلا.. لن أتركك تموتين مهما كنت تكرهينني. اشربي.

شربت.. ثم غاصت مجدداً على الوسادة.

سألت بصوت حاد الطبع: «أين أنا؟».

ـ في لاندروفر.

ـ لماذا جئت؟

لم يرد..

ـ متى تناولت الطعام آخر مرة؟

ـ وقت الفطور.

سمعت تمتمة انزعاج.. ثم جلس قربها:

ـ حملت معي بعض الطعام. إنه بسكويت وعسل.. أيمكنك الجلوس؟

أدارت وجهها كأنها طفل مشاكس:

ـ لا أريد طعاماً.

استسلم، وكأنما قرر الانتظار، سد جسمه مدخل السيارة وهو يخرج.

ثمة شيء في الأمر غلط.. فهذا هو الرجل الذي جاءت تبحث عنه.. ولكنه تحوّل إلى ذلك الغريب الذي كتب لها تلك الرسالة.. لا يمكنها أن تترك ذلك الغريب يلمسها مرة أخرى.

سمعت أصوات جرف فانجرفت إلى نوم قلق ولكنها استيقظت مجفلة لأن يداً اندفعت إلى داخل الغطاء سعياً إلى تحسس معصمها.. وعرفت أنه يتفحص نبضها..

سألت بكلمات غير واضحة: «ماذا كنت تفعل؟»

ـ أحاول تخليص سيارتك، يجب إبعادها من الطريق إذ ستكون تحت جناح الليل خطراً على السيارات الأخرى.. أتعلمين لو وصلت متأخراً..

ـ لوجدتني ميتة.. لماذا جئت؟ لماذا وجدتني؟

وقف قرب الباب.. فسألت: «أما زال الثلج منهمراً؟».

ـ أجل، وهناك عاصفة ثلجية. إنه الليل يجب علينا البقاء في مكاننا حتى الصباح.

تقدم يقف قربها ثم أضاء المصباح مرة أخرى.

ـ هل أنت دافئة؟

لم ترد، فتحسس يدها مرة أخرى.. كانت برودة يدها الرد على سؤاله.. فلف دثاراً آخر حولها.. تركته يفعل ذلك ما دام لا يلمسها.. اختطفها النوم مجدداً.. فلما تنبهت منه رأت على ضوء المصباح أن أوسكار مضطجع قربها، متكئاً على مرفقه، وما إن تحركت حتى تحرك معها:

ـ أتريدين الطعام مارسيلا؟

ـ لا.

ولكنه وضع ذراعه تحت كتفيها ورفعها.

ـ ليس معي حساء ساخن، لكن يجب أن تجربي تناول قطع خبز عليها بعض العسل.

أدارت وجهها مجدداً، فقال ببطء:

ـ لقد جئت من مسافة بعيدة مارسيلا بحثاً عنك.. وهذا أفضل ما أستطيع القيام به في هذه الظروف.. لذا، أرجوك أن تأكلي.

أخذت قضمة من الخبز الذي وضعه على شفتيها.. ثم ارتشفت من الشاي المحافظ على سخونته.

أطفأ المصباح واسترقى إلى جانبها. بدا لها أن لا أغطية فوقه ولا وسادة يلقي رأسه عليها. ساعتئذ تحركت فارتجف جسمها، فنهض فوراً يركع أمامها. أخذت أسنانها تصطك، وجسدها يهتز. إنها ردة فعل متأخرة، ولكن الأمر المرعب أنها لم تستطع فعل شيء لإيقاف الارتجاف.. حبست أنفاسها وشدت على قبضتيها. إنما لم يثمر ذلك إذ استمر الارتجاف.

همس أوسكار باسمها ولكنها لم تستطع الرد. سحب الأغطية عنها، ثم شاركها بها وراحت ذراعاه تجذبانها إليه.. أرادت أن تبتعد، إنما لم تجد

القوة لإبعاده.

تمتم: «يجب أن تسمحي لي باحتضانك مارسيلا، لأمنحك شيئاً من دفء جسدي وإلا مُتنا معاً من البرد».

في تلك اللحظة فقط شعرت بمدى برودة جسمه فخافت. يجب ألا يموت، فما ذلك بجزء من مخططها.. يجب أن يعيش، ليعود إلى ماريون.. وهو السبب الذي من أجله يريد أن يطلقها.

تركته يحتضنها فراح الارتعاش يخف في دائرة ذراعيه القويتين، ثم تلاشى، ساعياً للهدوء أن يحل محله فغفت.

مع ساعات الفجر الأولى استيقظت. نظرت إلى أوسكار فإذا به يتنفس بشكل منتظم دليل النوم العميق. ولكن قبضته حولها لم تخف.. استطاعت من خلال الطريقة التي تضمها بها ذراعاه الاقتناع بأنه يحبها ولكن ألم يسبق أن ظنت ذلك من قبل.. هل مرّ فقط أربع وعشرين ساعة؟ في هذه المرة لن تخدع نفسها ثانية.

انهمرت الدموع فجأة. كانت تندفع وتسيل على وجنتيها مبللة في طريقها بشرته فاستيقظ. في صدرها ألم عميق لم يخف حتى والعبرات تهز جسدها. إذن، لقد عادت مشاعرها أخيراً، وزال الخدر، وبلادة الحس اللذين حياها من الجنون تاركين أحاسيسها عرضة للخطر وبدون دفاع كطفل رضيع.

تركها تبكي ربما لعلمه أن هذا بحد ذاته دليل عافية، ودليل زوال الصدمة العميقة التي شلت حركتها وعقلها مدة ساعات.

وجد منديله الذي جفف به عينيها فسمحت له بأن يفعل ما يشاء.. فجأة انهمر المطر على سقف السيارة مؤذناً بتبدل الجو وقدوم ذوبان الجليد.. قريباً سترتفع الحرارة..

قال بصوت ملؤه السرور: «عودي يا حلوتي إلى النوم، ففي الصباح سيكون الرحيل غير عسير».

تصلبت مارسيلا لدى سماعها كلمة التحبب منه، فأطل الأمل برأسه

وكأنه امرأة تترقب وقع أقدام حبيبها بعد طول انتظار، ولكنه عاد ليختفي، فقد تذكرت كيف كانت هذه التحيات بلا معنى في المرة الأخيرة التي استخدمها فيها، فعلى ما يبدو أنه اعتقدها ماريون.

ارتفعت يدها في هذه الظلمة إلى وجهه تتلمسه، بدأت أصابعها تقرأ تعابير وجهه. تحسست جبهته، والخطوط بين عينيه إذن هو عابس. تحركت الأصابع فوق حاجبيه، واستقرت لحظة على خده القاسي، ثم نزلت لتستكشف تصلب فكه الذي لا يلين.

ثم ارتجفت الأصابع، وهي تتقدم إلى المكان المعطاء للمعلومات، ولكنها واجهت شفتين جافتين.. لا أمل هناك إطلاقاً.

همست بصوت كسير: «أوسكار.. آه! أوسكار!»

نحّت وجهها عنه وحاولت إبعاد جسدها أيضاً ولكن تمسكه بها اشتد. ارتفعت يده مسرعة، تمسك بذقنها، ترفع وجهها نحوه، ليقول بصوت أجش:

ـ قولي لي مارسيلا.. أتريدين الطلاق؟

ـ لا.. أوسكار.

ـ هل تحبين ستين؟

ـ لا.. لا.. أوسكار.. أحبك أنت.. فكيف أستطيع أن...

سحقتها ذراعاه فاستكانت بلا حراك ولكنه أجبرها على التجاوب.. ووجدت نفسها مطواعة من جديد، راغبة في حبه.

ثم ساد الصمت، صمت مبهج، يقطع الأنفاس.. وتراكض الدم في شرايينها..

أخيراً همس لها:

ـ زوجتي المحبوبة.. هل قمت بما أثبت لك حبي؟ وبما أثبت عدم توقفي يوماً عن هذا الحب الذي لن يتوقف حتى نهاية الزمان.

ارتفعت ذراعاها إليه رداً على ما قال فكان أن تعانقا، راضيين ساكنين حتى تكلمت مارسيلا.. إذ كان القلق يغزو طمأنينتها.

قالت مرتبكة: «أوسكار.. ماريون؟»

ـ نحن صديقين حبيبتي ليس إلا.. كنت لها المهندس الذي استخدمته لتصميم منزلها، وكانت لي زبونة.. هل تثقين بي مارسيلا؟

لامست شفتاه وجنتها، فهمست: «أجل.. أجل».

ـ إذن يجب أن تصدقيني عندما أقول إنني أخبرك الحقيقة. هل ظننت حقاً أنني بعدما نهلتُ من دفئك وحبك أقدر على التفكير في قضاء ما تبقى من أيام حياتي مع كتلة ثلج؟

ضحكت: «هكذا وصفها فراتك».

ـ إنه على حق. فهو كونه رجلاً يفهم هذه الأمور..

سألته: «أخبرني أوسكار.. لماذا كتبت تلك الرسالة الرهيبة؟»

ارتعش صوتها فما زالت الذكرى مؤلمة.

داعب شعرها:

ـ لأنني يا حبيبتي، ظننت أن هذا ما تريدين.. أما دأبت على المطالبة بالطلاق منذ عودتي؟.

ـ إنما هذا فقط، لأنني اعتقدت أنك تريد الخلاص مني.

ـ يا حبي.. لو أردت فعلاً الخلاص منك لوافقت على الطلاق منذ زمن.. أعلم أنك ظننتني رجلاً بلا مبادىء بسبب إصراري على «حقوقي الزوجية» مرة أخيرة قبل الفراق الأخير.

عانقها مجدداً فهزت رأسها..

ـ أردت اختبارك لأعرف إن كنت على حبي باقية، فقد عرفت أنك في وضع كهذا لن تستطيعي إخفاء حقيقة مشاعرك. ولكن بعدما حدث بيننا ليلة أمس تساءلت عن سبب قبولك شرطي في تلك الليلة بالذات.. وكم عذبتني فكرة أن السبب رغبتك الملحة إلى الطلاق. لقد عانيت أيضاً من وطأة الغيرة وعذابها، وما كانت تلك الرسالة إلا بسبب نوبة غضب. ولكن عندما هدأت في وقت لاحق شككت في صحة ما اعتقدته.. فقررت رؤيتك.. جئت إلى الشقة وهناك عرفت برحيلك. لقد شاهدت السيدة

كوسبي التي قالت إنك خرجت، ولم تعودي، وإنك رحلت إلى الريف بحثاً عن فندق .. لم أصدقها في البداية .. لم أصدق أن تكوني حمقاء إلى درجة الإقدام على شيء كهذا في مثل هذا الطقس .. ثم خطر ببالي أن ذلك ليس حماقة، بل شيء آخر. بعد ذلك قررت تعقبك ولكن سيارتي عاجزة عن الخوض في الطرقات في مثل هذا الطقس فكان أن استقرضت «اللاندروفر» من متعهد بناء أعرفه، فوافق. أقرضني كذلك معولاً ورفشاً وحذاء ثلج، وما إلى ذلك، لئلا أضيع وقتي في العودة إلى شقتي ثم أعدّت لي زوجته الشاي وبعض الطعام.

ـ ووصلت في الوقت المناسب!

ـ أجل .. وأشكر الله على هذا.

صمتا قليلاً، ثم قالت:

ـ أوسكار .. قلت عندما كنت مع كولمان في شقتك إنك عرفت صديقات عديدات. أكنت تعني هذا؟

ضحك: «أتريدين معرفة كل شيء؟ ألا تذكرين أيضاً أنني قلت إنني رجل مخلص ووفي للمرأة التي أحب؟»

ـ فلتلك تعني ماريون.

ـ أعرف أن هذا ما اعتقدته .. ولم أكن مستعداً لإفهامك العكس والسبب الطريقة التي كنت تركين فيها ستين يتعلق بك كظلك ..!

تحركت بين ذراعيه: «لم تردّ على سؤالي».

رفع ذقنها بقبضة يده: «أتتصرفين كزوجة متملكة؟ لا بأس، اتخذي هذا الدرب يا حبيبتي .. أحب هذا .. أجل عرفت صديقات عديدات وقد حاولت معاشرتهن ولكنني لم أنجح لأنني كلما اقتربت من إحداهن وجدتني أتخيلك مكانها وفي النهاية توقفت. الواقع أني ما عدت إلى «الميدلاند» إلا لاكتشاف حقيقة ما بينك وبين ستين .. ولكنني ويا للأسف وجدت كل شيء على حاله».

ـ في الليلتين اللتين قضيناهما معاً في الفندق أوسكار عذبني وجودك قرب

وعجزي عن الاقتراب منك.

ـ أهذا ما أحسست به؟ وماذا عني؟

نظر إلى عينيها:

ـ الليلة الثانية، عندما كنت أفضل حالاً، أردتك .. بل أردتك بشغف .. ولو طلبت منك الاقتراب لوافقت .. ولكنني كنت مقتنعاً بأنك كنت ستقدمين على ذلك كرهاً، أو شفقة .. أتفهمين الآن لماذا لم أستطع مواجهة ليلة ثالثة معك .. كان عليّ العودة لأكون بعيداً عنك.

همست له، وهي تثبت ما تقول:

ـ لكنني الآن غير بعيدة عنك حبيبي.

قال:

ـ لن أفترق عنك مرة أخرى .. لقد عشت بدونك مدة طويلة .. لذلك سنغير نظام حياتنا .. عندما نعود، توضبين حقيبة، وتأتين للعيش معي. أما غداً فسننقل ما تبقى من أغراضك .. هل من اعتراض؟

همست وعيناها البارقتان تعكسان نور الصباح الذي بدأ يملأ نوافذ السيارة التي غسلها المطر:

ـ أبداً

ـ حسناً .. سأخبرك الآن كيف ستمضي أمسياتنا .. ستجلسين على ركبتيّ لنخطط معاً لتصميم بيت لنا. أول بيت حقيقي نتشاركه حقاً.

قلت: تصميم هندسي؟

ـ في الواقع حبيبتي .. تصميم هندسي، مدروس جيداً وعلى أرض ثابتة، كحال زواجنا من الآن فصاعداً. أموافقة سيدة بلووم؟

ـ موافقة .. سيد بلووم.

أخذت شفتاه تتحركان على وجهها:

ـ و .. سنملأ بيتنا بعصب الحياة والحركة.

ابتسمت تسأل: أتشير إلى أولئك الصغار الذين ينمون ويكبرون؟

* * *

منتديات ليلاس الثقافية